بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

أرسله الله تعالى بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله حق جهاده ، حتى أتاه اليقين ، فصلوات ربي وسلامه عليه ، وعلى من اهتدى بهديه ، واستن بسنته إلى يوم الدين ، ثم أما بعد .

ففي هذا المساء المبارك ، في ساعات نستشرف فيها إجابة الدعاء من ربنا عز وجل ، نستظل في دوحة من دوحات العلم ، وينعقد هذا المجلس في روضة من رياض الجنة ؛ وذلكم أن مجالس العلم ، ومجالس الذكر ، هي رياض الجنة ، فإذا مر بها الإنسان فليرتع .

نستفتح هذه السلسلة من الدورات العلمية العقدية ، المستلة من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، ونستفتح بالذي هو خير ، في رسالة في أصول الدين ، واقعة في المجلد الثالث من فتاوى شيخ الإسلام .

ولا يفوتني بين يدي هذا الاجتماع المبارك ، أن أتقدم بالشكر الجزيل ، لجماعة مسجد حي السليمانية ، جامع أبي موسى الأشعري ، وعلى رأسهم : فضيلة الشيخ خالد بن محمد القرعاوي ، حفظه الله ، وفريق العمل ، الذين دأبوا وعملوا معه ، فجزاهم الله عنا خير الجزاء ، على ما قدموا وعلى ما بذلوا ، وحياكم الله طلبة العلم ، حيا الله هذه الوجوه الطيبة ، النيرة ، التي نسأل الله سبحانه وتعالى ، أن تلتقي في عرصات القيامة ، ضاحكة مستبشرة .

وقبل أن ندخل في رحاب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، ما أحوجنا أن نسلط الضوء ، بكلمات يسيرة، على جوانب من حياة هذا الإمام العلم ، التي تحتاج الأمة في هذه الأزمان الحرجة ، وفي هذه الظروف الدقيقة ، إلى عالم وقائد رباني على شاكلته .

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، هو : أحمد بن عبد الحليم ، بن عبد السلام ، الحراني .

كان مولده رحمه الله سنة 661 ستمائة وواحد وستين للهجرة ، وولد رحمه الله في ظروف عصيبة مرت بالإسلامية ، ربما تشابه هذه الظروف ؛ حيث اختلط فيها الحابل بالنابل ، وغشت البلاد

الإسلامية ، أصناف من المحن السياسية والمذهبية والعقدية ، وصار مذهب السلف الصالح فيها غريبا ، فنشأ هذا الإمام ، في بيت علم ودين حنبلي ، نشأة صالحة تقية ، وآتاه الله تعالى ، من القوى والمؤهلات ، ما جعله مستودعا للعلم ، آتاه الله تعالى حافظة باهرة ، وآتاه الله تعالى عقلا نافذا ، وذكاء متوقدا ، حتى كان الناس يتعجبون من قوة حافظته ، وقدرته على فهم المسائل ، فجلس للتدريس ، وهو ابن ثمان أو تسعَ عشرةَ سنة ، رحمه الله ، جلس للفتيا والتدريس ، وكان يجلس بين يديه أكابر العلماء ، وبز أقرانه ، وظل رحمه الله تعالى ، ينشر مذهب السلف الصالح ، ويبين ما كان عليه الأئمة المتقدمون ، ويُنحي باللائمة على أهل التعصب ، ويتكلم في فضح الفرق الضالة ، حتى ناصبه كثير من هؤلاء العداء ، ووشَوا به ، وتعرض لمحن وابتلاء ، لكن الله سبحانه وتعالى ، ثبته بالقول الثابت في الحياة الدنيا .

وكان العلم بين عينيه ، يختار منه ما يشاء ، ويقدم ويؤخر ، ويخاطب الناس بما فتح الله تعالى عليه من علوم الكتاب والسنة ، فينقطع المخالفون بين يديه .

كان رحمه الله إماما في العلم ؛ حتى قيل : حديث لا يعرفه ابن تيمية ليس بحديث ، يقول ذلك الذهبي ، وحسبك به .

كان رحمه الله إماما في العبادة ، كانت له عبادة عظيمة ، وتضرع وتألُّه ، كان يجلس في مصلاه بعد صلاة الصبح ، حتى يرتفع النهار ، ويقول : هذه غَدْوتي ، ولولاها لانهدمت" ، يعلم أن المدد من الله سبحانه وتعالى ، فكان قلبه موصولا بربه.

كان رحمه الله إماما في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ حتى إن نائب السلطنة ، أيام غزو التتار لبلاد الشام ، إذا غادر البلد ، وفر إلى مصر ، كان يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكسر حوانيت الخمور ، وحلق رؤوس الصبيان ، وإقامة شعائر الله .

كان إماما في الجهاد في سبيل الله ، فكان يشجع الجند ، وهم على أسوار دمشق – فك الله أسرها – على أولئك التتار ، المحاصرين لها ، وكان يحلف بالله ولا يستثني أنهم منصورون ، حتى إنهم يقولون له : قل إن شاء الله ، فيقول رحمه الله : إن شاء الله تحقيقا ، لا تعليقا ؛ لثقته بوعد الله ونصر الله .

وكان يذهب في سفارات خطيرة إلى ملوك التتار "قازان" وغيره ، ينافح عن بلاد الإسلام ، ويتكلم بين أيديهم بأشد الكلام ، ولا يخاف في الله لومة لائم .

كما كان رحمه الله تعالى ، يقاتل هؤلاء الباطنية ، فإنه قاتل رؤوس الباطنية ، من النصيرية وأشكالهم ، بالسيف والسنان ، وبالحجة والبرهان ، حتى أنزلهم من جبال "كَسْرَوانَ" وغيرِها ، وأقام فيهم حد الله عز وجل .

ومع ذلك ، فإنه قد ابتُلي رحمه الله ، وقُيض له من الأعداء ، ما قيض لأعداء الرسل ، فإن من سار على طريق الرسل ، فإنه يلقى ما لقيه الرسل من الابتلاء {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين} فكذلك أعداء الرسل ، فكان رحمه الله تعالى ، يجد من أصناف المبتدعة ، من متعصبة المذاهب ، ومن أصحاب الطرق الكلامية ، من يشي به ، ويسعى بدمه ، ومع ذلك رحمه الله ، لم يكن يحمل عليهم في قلبه ؛ حتى إنهم وشَوا به مرة إلى السلطان الناصر "قلاوون" ، وأغروه بقتله ، ودعوه إلى أن يوقع عليه حد التعزير البليغ ، الذي يعني عندهم القتل ، فما إن لقيه السلطان ، وقد أُتيَ به مخفورا من بلاد الشام ، وجلس إليه ، حتى تبين له صدقُه ، وسعة علمه ، وقوة إيمانه ، ودينه ، فعجب من سعيهم فيه ، وقال : قد حكمتك في هؤلاء، أي : احكم فيهم بما تشاء ، فلما رأى غضبه عليهم ، خشي عليهم وقال : أيها الملك ، هؤلاء هم فقهاء الملة ، وعلماء دولتك ، ولا غنى لك عنهم ، وما زال يُسكنه عليهم ، حتى ذهب ما يجد ، هكذا يكون العالم الرباني ، قويا في الحق ، رحيما بالخلق .

وظل رحمه الله ، يصنف ، ويجيب ، ويدرس ، حتى وافاه الأجل ، وهو مسجون في قلعة دمشق ، وكان رحمه الله يقول في أُخْرَيات عمره ، حينما أدخل في هذه القلعة ، وأغلق الباب دونه ، قال {فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب} .

كان رحمه الله يقول "ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ، فهي معي لا تفارقني ، أنا سَجني خَلوة ، ونفيي سياحة ، وقتلي شهادة ، فما يصنع أعدائي بي ؟ " .

بل كان يشعر بالغبطة والمنة ، أن سيق إلى هذا المكان ، مصداقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم ، [لا يقضي الله على المؤمن قضاء إلا كان خيرا له] فكان يقول رحمه الله "لقد فتح الله علي في هذه القلعة من أبواب العلم بالله ، وتدبر القرآن ، ما مات كثير من الأكابر وهم يطلبونه ، ووالله لو ملأت لهم هذه القلعة – أي خصومة – ذهبا وفضة ، ما كافأتهم على ما ساقوا لي من الخير " هكذا المؤمن أيها الكرام ، وما زال رحمه الله ، وهو في سجنه ، يكتب ويفتي ، وينفع الناس بما استطاع ، حتى وافاه الأجل المحتوم ، وكان في خَتمته قد بلغ قول الله عز وجل {في مقعد صدق عند مليك مقتدر} فكان هذا هو آخرَ ما قرأ من كتاب الله ، وكانت وفاته سنة 728 سبعمائة وثمانية وعشرين للهجرة ، ولم

يزل الناس بعد شيخ الإسلام ابن تيمية يُميزون ، فيقال : تيمي ، وغير تيمي ، كان فارقا في تاريخ العقيدة الإسلامية ، رحمه الله رحمة واسعة، كان يمثل مجمع كمالات للعالم الرباني الذي تهتدي الأمة بهديه ؛ لأنه يقبِس من مشكاة النبوة رأسا.

وبين أيدينا أيها الكرام ، أنموذج مما خطه بنانه ، في مسائل مختلفة ، وهي هذه الرسالة ، التي وسمناها بـــ "رسالة في أصول الدين" وهي واقعة كما أسلفت ، في المجلد الثالث من "مجموع الفتاوى" المتعلق بمفصل الاعتقاد ، وسنسعى إن شاء الله تعالى ، أن نمر على جميع ما فيها ، فقد تضمنت فصولا ماتعة مهمة لطالب العلم .

وينبغي لطالب العلم منكم ، أن يتمرس في معرفة كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، فإنه لم يكن يصنف كما يصنف كثير من العلماء ، أن يكتب ابتداء ، فإن عامة كتبه ، كان يكتبها بنتَ ساعتها ، فربما وقع في كلامه ، ما يحتاج من طالب العلم إلى مراس ؛ بحيث يعتاد على فهم أسلوبه ، وطريقته رحمه الله .

الحمد لله ، والصلاة والسلام على خير خلق الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، اللهم اغفر لشيخنا ولنا وللمسلمين .

سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّة – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –:

مَا الَّذِي يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ اعْتِقَادُهُ؟ وَمَا الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ عِلْمُهُ؟ وَمَا هُوَ الْعِلْمُ الْمُرَغَّبُ فِيهِ؟ وَمَا هُوَ الْيَقِينُ؟ وَكَيْفَ يَحْصُلُ؟ وَمَا الْعِلْمُ بِاَللَّهِ؟

فَأَجَابَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَمَّا قَوْلُهُ: مَا الَّذِي يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ اعْتِقَادُهُ فَهَذَا فِيهِ إجْمَالٌ وَتَفْصِيلٌ.

 # أَمَّا الْإِجْمَالُ فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ أَنْ يُؤْمِنَ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَيُقِرَّ بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ: مِنْ أَمْرِ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا أَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ وَنَهَى بِحَيْثُ يُقِرُّ بِجَمِيعِ مَا أَخْبَرَ بِهِ وَمَا أَمَرَ بِهِ. فَلَا بُدَّ مِنْ تَصْدِيقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ؛ وَالِانْقِيَادِ لَهُ فِيمَا أَمَرَ.

الشرح :

هذا هو نص السؤال ، هذه هي صورة المسألة ، واعلموا يا رعاكم الله ، أن أسباب التصنيف متنوعة :

– فأحيانا يصنف العالم ابتداء ؛ بأن يمتشق القلم ، ويضع سن القلم على القرطاس ، ويكتب ابتداء في مسألة من المسائل ، التي يرى أن الله تعالى ، قد أخذ عليه العهد والميثاق في بيانها للناس .

– وأحيانا يقع ذلك تأثما وتذمما ، وقياما بما أوجب الله تعالى ، من بذل العلم ؛ فإن من كتم علما ، ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة ، فيرد على العالم سؤال فيفتي به .

وعامة ما كتب شيخ الإسلام رحمه الله ، هو من هذا القبيل ، وذلك يدلكم على أنه كان يعيش في حالة مستمرة ، من العطاء البذل الذي ينقطع ، لم يكن يصنف كما يصنف كثير من المتوفرين للعلم ، من معدي الدراسات العليا ، وغير ذلك ، لا ، كان عالمَ عامة ، كان رحمه الله كالسلف ، علماء عامة ، فلذلك كانت معظم مؤلفاته ، تقع إجابة على سؤالات .

وينبغي لطالب العلم ، أن يُحكم سؤاله ؛ بحيث يسأل عما يحتاج إليه فعلا ، ثم عليه إذا سأل ، أن يحسن السؤال .

ومن آداب السؤال : أن يتلطف الإنسان في عرضه ، وهذا يقع في كثير من المسائل ، التي تجدها في "الفتاوى" فيتلطف في الكلام مع المسؤول ، ثم يبين مراده ، وما خفي عليه .

وهذه المسألة التي قرأناها للتو ، قد تضمنت سنة أسئلة ، تأملوا معي :

السؤال الأول : ما الذي يجب على المكلف اعتقاده ؟ .

السؤال الثاني : ما الذي يجب عليه علمه ؟ .

السؤال الثالث : ما هو العلم المرغَّب فيه ؟ .

السؤال الرابع : ما هو اليقين ؟ .

والسؤال الخامس : كيف يحصل اليقين .

والسؤال السادس : ما العلم بالله ؟ .

وهي أسئلة عظيمة ، تتشوف الناس لمعرفة الجواب عنها .

وأما الإجابة ، فإن على العالم أن يجيب بإجابة تجمع عدة خصال :

أولها : أن يستهلها بالبسملة أو الحمدلة ، فكل أمر ذي بال ، لا يبدأ فيه بحمد الله ، فهو أقطع ، وقد استهل الله تعالى كتابه العزيز بـــ {الحمد لله رب العالمين} .

وينبغي أن تتسم الإجابة ، أو الخطبة ، أو البيان ، بالتأصيل ، بمعنى أن يكون مُعَوَّلُك يا طالب العلم في بيانك ، الأصلين : الكتاب والسنة ، ولا تعول على غيرهما ، إلا على سبيل الارتفاق ، والاستئناس ، وهذا أمر مهم ، ينبغي أن يتفطن له كل مؤمن ؛ فإن كثيرا من طلبة العلم ، يحتفي بأقوال الرجال ، ما لا يحتفي بكلام الله ، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، فالله الله ، ليكن معولك ، ومستندك ، على هذين الأصلين العظيمين : الكتاب والسنةِ .

الأمر الثالث في آداب الإجابة : البيان ، القصد ، بأن تصيب مراد السائل ، وستجدون في هذه الإجابة كيف أن شيخ الإسلام ابن تيمية ، مشى قَصصا ، على هذه المسألة ، فأجاب عليها واحدة واحدة .

ثم أيضا : من آداب الإجابة : حسن العرض والترتيب ، فإن حسن العرض له وقع كبير ، في الانتفاع بالجواب ، وبعض الأجوبة التي يكون فيها تقديم وتأخير ، وبعثرة ، تضيع معها الفائدة .

كذلك من حسن الجواب : أن يأتي بزيادات مفيدة ، على سؤال السائل ؛ ولهذا لما سأل أبو ثعلبة الخشَني النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : إنا نركب البحر ، ويكون معنا القليل من الماء ، أفنتوضأ به ؟ سأل عن مسألة الطهور فقط ، فقال [هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته] فزاده علما ، وقال [الحي ميتته] .

وأيضا مما ينبغي للعالم إذا أجاب على مسألة ، أن ينقد السؤال ، إذا احتيج إلى ذلك ؛ فإن بعض السائلين قد يخطئ في سؤاله ، وقد يبدأ بغير الأهم ، وإنا لنجد في إجابات شيخ الإسلام ابن تيمية ، في غير هذه المسألة ، كيف أنه أحيانا يقدم ويؤخر ، وفق ما يراه ، لا وفق ما رتبه السائل ، فلا ينبغي للمسؤول ، من عالم ومفتٍ أن ينساق خلف أسئلة السائلين ، فإن بعض السائلين ، يوحي إلى المسؤول بما يريد ، فكأنما يملي عليه الجواب ابتداء ، فعلى العالم النافذ البصيرة ، أن يتنبه إلى مسؤوليته .

ثم إنه ينبغي أيضا للعالم ، أن يتلطف مع السائل والقارئ ؛ ولهذا نجد كثيرا في أجوبة علماء قولهم : اعلم رحمك الله ، ونحو هذا من الدعاء الحسن .

ثم إن الشيخ رحمه الله ، قال إجابة على السؤال الأول (فيما يجب على المكلف اعتقاده ؟) : هذا فيه إجمال وتفصيل ، فلنستمع الآن إلى الجواب المجمل ، ثم الجواب المفصل .

ما شاء الله ، علينا أن نعي هذا الأمر أيها الكرام ، وهو : أنا إذا سئلنا عن ديننا فلا نتلجلج ، أو نحجم ، أو نقول : لا ، لِنذهبْ بك إلى الشيخ الفلاني ، أو نذهب بك إلى الدائر الفلانية ، كل مسلم ينبغي أن يكون ملما بمقاصد دينه ، فيجب جوابا مجملا ، ويدع التفاصيل التي لا يحسنها لأهل الاختصاص .

فإذا سألك سائل راغب في الدخول في الإسلام عن الإسلام ، لا تقل : لا أدري ، أخبره بما تعلم من دينك ، وأجبه جوابا مجملا ، هذا جبريل عليه السلام ، يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، كما في الحديث المشهور ، ويسأله عن الإسلام ، وعن الإيمان ، وعن الإحسان ، وعن الساعة ، وأماراتها ، فيعطيه أجوبة ، لو شاء العاد أن يعدها لعدها ، أجوبة مجملة ، لكنها جماع الحق ، فيجب الإنسان أحيانا بالجواب المجمل ، الدال على المقصود ، فما سمعتم قبل قليل في الأسطر القليلة ، هو جواب مجمل عما يجب على المكلف اعتقاده ، وقد لزم فيه رحمه الله ، الطريقة النبوية ، فقد أجاب جبريل بقوله [الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره] .

 # وَأَمَّا التَّفْصِيلُ فَعَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يُقِرَّ بِمَا ثَبَتَ عِنْدَهُ؛ مِنْ أَنَّ الرَّسُولَ أَخْبَرَ بِهِ وَأَمَرَ بِهِ وَأَمَّا مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ وَلَمْ يَبْلُغْهُ أَنَّهُ أَخْبَرَ بِهِ؛ وَلَمْ يُمْكِنْهُ الْعِلْمُ بِذَلِكَ؛ فَهُوَ لَا يُعَاقَبُ عَلَى تَرْكِ الْإِقْرَارِ بِهِ مُفَصَّلًا وَهُوَ دَاخِلٌ فِي إقْرَارِهِ بِالْمُجْمَلِ الْعَامِّ ثُمَّ إنْ قَالَ خِلَافَ ذَلِكَ مُتَأَوِّلًا كَانَ مُخْطِئًا يُغْفَرُ لَهُ خَطَؤُهُ؛ إذَا لَمْ يَحْصُلْ مِنْهُ تَفْرِيطٌ وَلَا عُدْوَانٌ .

الشرح :

نعم ، هذه الإجابة تتعلق بالتفصيل ، فما الذي يجب على المكلف اعتقاده ؟ .

إذا ثبت عند المكلف – والمقصود بالمكلف هو : المسلم البالغ العاقل ، الذي يعي خطاب الله تعالى ، وخطاب نبيه صلى الله عليه وسلم ويفهمه – ، الواجب عليه ، فيما ثبت عنده من تفاصيل ، أن يُثبت ما بلغه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيؤمن بهذه التفاصيل ، ويقر بها ، إن كانت عملا .

ما لم يبلغه من أنواع العلوم التفصيلية ، و لم يمكنه العلم به ، فهل يعاقب على ترك الإقرار به ؟ كلا ؛ لأن هذا خلاف الطَّوقِ و{لا يكلف الله نفسها إلا وسعها} ، {لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها} .

ثم لو قُدر أنه قال بخلاف الحق ، وله في ذلك نوع تأويل سائغ ، فإنه يكون مخطئا ، والله تعالى يغفر للمخطئ المجتهد ، لكن بشرط : ألا يقع منه تفريط ولا عدوان .

إذن بهذا نستطيع أن نتصور الخريطة ، في أنواع العلوم المختلفة .

ثَم علم إجمالي، يجمعه: شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، هذا علم أجمالي، لا يسع مسلما الخروج عنه.

وثَم علم تفصيلي ، يتفاوت الناس فيه ، فكل ما ثبت عندك أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قاله أو فعله ، لزمك بعينك ، وشخصك ، أن تؤمن به وتقر ؛ لأن الله تعالى أمرنا بقبول ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} وقال {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون} .

إذن لا بد لنا من قبول ما جاء به الرسول ، وألا نرد شيئا منه ، ولكن الله سبحانه وتعالى ، قد علم أن عباده يتفاوتون في هذا ، ويعتريهم قصور وتقصير :

– فعذر بالجهل فقال تعالى {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} .

– وأثبت الحجة الرسالية فقال {رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} فمن لم تبلغه الحجة الرسالية ، في الأصول أو الفروع ، فهو معذور .

بقي أن يفعل الإنسان خلاف ما جاء به الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ويقع منه ذلك بنوع تأويل ، فإنا نقول : إنه قد أخطأ ، ونصف فعله أو قوله بالخطأ ، ولكننا لا نؤثمه ، بل نقول : خطؤه مغفور ، إن كان هذا هو قصارى جهده ، بشرط ألا يقع منه تفريط ولا عدوان .

وَلِهَذَا يَجِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ مِنْ الِاعْتِقَادِ مَا لَا يَجِبُ عَلَى آحَادِ الْعَامَّةِ، وَيَجِبُ عَلَى مَنْ نَشَأَ بِدَارِ عِلْمٍ وَإِيمَانٍ مِنْ ذَلِكَ مَا لَا يَجِبُ عَلَى مَنْ نَشَأَ بِدَارِ جَهْلٍ. وَأَمَّا مَا عَلِمَ ثُبُوتَهُ بِمُجَرَّدِ الْقِيَاسِ الْعَقْلِيِّ دُونَ الرِّسَالَةِ؛ فَهَذَا لَا يُعَاقَبُ إنْ لَمْ يَعْتَقِدْهُ. وَأَمَّا قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ: إنَّ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةَ بِالْعَقْلِ هِيَ الَّتِي يَجِبُ الْإِقْرَارُ بِهَا؛ وَيَكْفُرُ تَارِكُهَا بِخِلَافِ مَا ثَبَتَ بِالسَّمْعِ؛ فَإِنَّهُمْ تَارَةً يَنْفُونَهُ وَتَارَةً يَتَأَوَّلُونَهُ أَوْ يُفَوِّضُونَ مَعْنَاهُ وَتَارَةً يُثْبِتُونَهُ لَكِنْ يَجْعَلُونَ الْإِيمَانَ وَالْكُفْرَ مُتَعَلِّقًا بِالصِّفَاتِ الْعَقْلِيَّةِ فَهَذَا لَا أَصْلَ لَهُ عَنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا إذْ الْإِيمَانُ وَالْكُفْرُ هُمَا مِنْ الْأَحْكَامِ الَّتِي ثَبَتَتْ بِالرِّسَالَةِ؛ وَبِالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ؛ لَا بِمُجَرَّدِ الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ.

الشرح :

تضمنت هذه القطعة عدة أمور :

الأمر الأول هو : التفريق بين طبقات الناس ؛ فإن الواجب على العلماء من الاعتقاد ، أعظم من الواجب على العامة ؛ وذلك أن الله آتى العلماء ، من الاطلاع ، والوقوف على موارد النصوص ، ما لم يؤته العامة ؛ وبناء عليه فإن الواجب على العلماء ، ليس كالواجب على العامة ، كما أن من نشأ في دار علم وإيمان ، ليس كمن نشأ في دار جهل وبادية وبعد عن مصادر العلم .

وعلى العلماء مسؤولية كبيرة ؛ لأن لهم شرفا كبيرا ، والله سبحانه وتعالى يؤتي فضله من يشاء ، فعلى من زينه الله تعالى بالعلم ، أن يضم إلى علمه عملا وإيمانا ، فلا يكون علمه يعود وبالا عليه ، بل يكون حجة له .

أما العامي فإن وظيفته التقليد ؛ لأن قصارى جهده أن يسأل أهل الذكر ، وقد قال ربنا عز وجل {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} ، فلا يقولن العامي : أنا معفىً من السؤال {لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم} ، كما يُزيَّنُ لبعضهم ، لا ، الواجب على كل مسلم احتاج إلى مسألة من المسائل ، أن يتبين حكم الله تعالى فيها ، وألا يتكئ على جهله ويتعلل به ، مع إمكان علمه .

والآية التي تلوت آنفا ، وهي قوله تعالى {لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم} إنما نزلت في وقت التشريع ، والشرع بعدُ لم يكتمل ، فكانوا ينهون أن يبادئوا النبي صلى الله عليه وسلم ، بمسألة يترتب على سؤالهم تحريم وضيق وحرج على الأمة ، فلهذا جاء في الحديث [إن من أعظم المسلمين جرما ، رجل سأل عن مسألة ، فحرمت لأجل مسألته] .

ففي زمن التشريع لا يبادئ أحد النبي صلى الله عليه وسلم ، بسؤال ابتداء ، بل يدع ذلك حتى يقررَه صلى الله عليه وسلم ، ولهذا كان يقول [ذروني ما تركتم] أما وقد اكتملت الشريعة ، و لم يبق مجال للزيادة ، فعلى الإنسان أن يستقصي ما يحتاج إلى علمه .

ما هي مصادر العلوم ؟ للعلم ثلاثة مصادر أساسية ، وثلاثة مصادر إضافية :

- أما المصادر الأساسية الثلاثة فهي :

1- الكتاب .

2- والسنة .

3- والإجماع .

هذه هي أصول العلم : الكتاب والسنة والإجماع .

- وأما المصادر الإضافية فهي :

1- العقل .

2- والحس .

3- والفطرة .

فقد آتانا الله سبحانه وتعالى ، وحيا منزلا ، هو العصمة ، وهو الكتاب والسنة والإجماع ، والإجماع إن يُستمد منه .

وآتانا الله تعالى ، أمورا نستعين بها ، قد بثها في الكون حولنا ، تكون مصدقة مؤيدة لناطق الكتاب ، وصحيح السنة ، وهي : العقل الصريح ، والفطرة السوية ، والحس ، كل هذه مصادرُ في تحصيل العلم .

أشار الشيخ رحمه الله إلى مصطلح ، ربما سمعتموه كثيرا ، وهو قوله "أهل الكلام" ما المراد بأهل الكلام ؟ المراد بأهل الكلام ، أو المتكلمين : هم الذين يحاولون إثبات العقائد الدينية ، بالطرق العقلية فقط ، هؤلاء هم المتكلمون .

بمعنى : أنهم لا يعولون أساسا على الكتاب والسنة ، بل يجعلون العقل هو الحاكمَ السيد الذي يُرجع إليه ، ثم يستدعون الكتاب والسنة ، فيعرضونهما على العقل ، فإن وافق العقلَ قبلوا دلالتهما ، وإن خالف العقلَ سلكوا فيه إحدى الطرق التي ذكرها الشيخ رحمه الله ، وهي :

- إما النفي .

- وإما التأويل .

- وإما التفويض .

- وإما إثباتٌ مع التهوين .

كيف ذلك ؟ هؤلاء القوم المسمَّون "المتكلمين" ، يقدمون العقل على النقل ، يجعلون العقل سيدا ، والنقل مسودا، يجعلون العقل متبوعا ، والنقل تابعا ، يعكسون القضية ، فإذا اصطدمت نصوص الكتاب والسنة ، مع مقدماتهم ، التي قرروها ، حينئذ ماذا يصنعون بالنصوص ؟ إحدى الطرق التالية : أولها : النفي ، بمعنى أن ينفوا النص ، ويضربوا به عرض الحائط ، وقد وقع ذلك من غلاتهم كثيرا ، من الجهمية ، والمعتزلة ، إن كان حديثا قالوا : هذا حديث آحاد ، لا تقوم به حجة ، ولا يُحتج بأحاديث الآحاد في مسائل الاعتقاد .

وإن كان حديثا متواترا ، أو آية محكمة ، عاملوها بالطريقة الثانية ، وهي : التأويل .

إذن : منهم من يواجه النصوص بالنفي ، وهؤلاء هم غلاتهم .

صنف آخر يعامل بعضها بالتأويل ، وحقيقة التأويل هو التحريف في الواقع ، بمعنى : أنهم يُظهرون القبول للنص ، لكن يفتاتون عليه ، ويقولون : المراد به كذا وكذا ، وليس المراد به كذا وكذا ، ليس على ظاهره ، المراد خلاف الظاهر ، من أين لكم ذلك ؟ بأي حق تحكمتم في تعيين الدِلالة ، وخرجتم عن السياق ؟ لا يبالون ، يقولون : نفعل ذلك صيانةً للشريعة ، {أأنتم أعلم أم الله} ، أأنتم أحسن من الله قيلا ؟ أأنتم أصدق من الله حديثا ؟ أأنتم أنصح للأمة من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

ومنهم من يتعامل معه بالتفويض ، والحقيقة أن هذا مسلك خطير ، وهو : أن يأتوا إلى هذه النصوص ، فيقولوا : نعم ، هذه النصوص حق ، على حقيقتها ، وعلى ظاهرها ، لكن لا أحد يعلم معناها إلا الله ، أما نحن فلا سبيل لنا للعلم بمعناها ، إذن ما المحصلة ؟ المحصلة هي : الإيمان بألفاظها وحروفها ، والتجهيل بمعناها وحقيقتها ؛ فلذلك كانوا يسمون أنفسهم "أهل التفويض" زعما منهم بأنهم يفوضون العلم إلى الله ، وهم في الحقيقة يجهّلون عباد الله، بل يجهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكثيرا ما يسلكون هذين المسلكين (التأويل أو التفويض) فإذا أتوا غلى ما يسمونه بالنصوص المشكلة ، أو النصوص المتشابهة ، يقول قائلهم :

وكلَّ نص أوهم التشبيها *** فوضْه أو أَوِل ورُمْ تنزيها

هكذا ، كأن هذه آية عندهم .

وأما الطريقة الرابعة فهي : الإثبات مع التهوين .

وقد أشار إليه الشيخ رحمه الله ، بقوله " فإنهم تارة يثبتونه ، لكن يجعلون الإيمان والكفر ، متعلقا بالصفات العقلية ، فهذا لا أصل له عند سلف الأمة ، وأئمتها" .

أي : يثبتون مثلا ما دل عليه النص ، لكن يقولون : هذا لا يتعلق به شيء ، مدار الإيمان والكفر ، على ما أثبته العقل .

ثم إن الشيخ رحمه الله ، استدرك على هؤلاء المتكلمين ، هذا المسلكَ الباطل ، وبين بأن متعلَّق الإيمان والكفر عند الإيمان عند السلف ، على الكتاب والسنة ، لا على العقل ، فالكتاب والسنة ، هما الحاكمان في مسألة الكفر والإيمان ، وليس عقول الناس التي تختلف .

ولهذا كان هؤلاء المتكلمون يتفاوتون في أحكامهم ، وعقولهم ، بل الرجل والواحد منهم ، يكون له قول في أول الكتاب ، يخالف قوله في آخر الكتاب ، يكون له قول في مُبتدأِ عمره ، يخالف قوله في آخر عمره ، ناهيك عما يقع بين أفرادهم من اختلافات واسعة ، ومن لم يعتصم بالله ، فإنه حقيق بالضلال {ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم } .

وَأَمَّا قَوْلُهُ: مَا الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ عِلْمُهُ؟ فَهَذَا أَيْضًا يَتَنَوَّعُ فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَعْلَمَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فَيَعْلَمَ مَا أَمَرَ بِالْإِيمَانِ بِهِ؟ وَمَا أَمَرَ بِعِلْمِهِ؛ بِحَيْثُ لَوْ كَانَ لَهُ مَا تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ لَوَجَبَ عَلَيْهِ تَعَلُّمُ عِلْمِ الزَّكَاةِ، وَلَوْ كَانَ لَهُ مَا يَحُجُّ بِهِ لَوَجَبَ عَلَيْهِ تَعَلُّمُ عِلْمِ الْحَجِّ وَكَذَلِكَ أَمْثَالُ ذَلِكَ. وَيَجِبُ عَلَى عُمُومِ الْأُمَّةِ عِلْمُ جَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ بِحَيْثُ لَا يَضِيعُ مِنْ الْعِلْمِ الَّذِي بَلَّغَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ شَيْءٌ وَهُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ لَكِنَّ الْقَدْرَ الزَّائِدَ عَلَى مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ الْمُعَيَّنُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ: إذَا قَامَتْ بِهِ طَائِفَةٌ سَقَطَ عَنْ الْبَاقِينَ .

الشرح :

هذه القطعة إجابة عن السؤال الثاني في سؤال السائل ، فما الذي يجب علمه ؟ بين الشيخ رحمه الله ، أن العلم نوعان :

- علم يجب تعلمه على الأعيان .
- وعلم هو فرض كفائي .

أي : تارة يكون العلم فرض عين ، وتارة يكون فرض كفاية ، فمتى يكون فرض عين ؟ يكون فرضَ عين ، على كل معين فيما يحتاج إليه ، فيتعين على كل مسلم مثلا ، أن يعرف أحكام الطهارة ، والصلاة ؛ لأن هذا مطلوب من كل مسلم .

ويتعين على من كان عنده مال زكوي ، أن يتعلم العلم في أنصباء الزكاة التي بين يديه ، فإذا كان صاحب إبل ، عليه أن يعرف أن في خمس من الإبل شاةً ، وفي عشر شاتين ، وفي خمس عشرة ثلاثا .. إلخ تفاصيل ذلك .

وكذا إذا كان صاحب غنم ، أو بقر ، أو صاحب ذهب ، أو فضة .

كذلك إذا استطاع الحج ، تعين عليه ، أن يعرف أحكام المناسك التي يحصل بها تمام النسك ، وهكذا .

فتارة يكون العلم فرض عين على كل معين ، ولا يمكن أن يخلو مسلم ، من وجود فرض عيني ، وإلا لما استقام له دين .

وهناك فرض كفائي ، يشمل الأمة بمجموعها ، بمعنى : أنه لا يجوز أن يُهجر شيء من علم النبوة ؛ بحيث تتنصل الأمة بمجموعها عنه ، فلا يحل للأمة مثلا بأكملها ، أن تدع علم تعلم الفرائض ، والمواريث ، وأحكام المواريث ن يجب أن يَنتدب أحدٌ لذلك ، يجب أن ينتدب أحد لمعرفة علم أصول الفقه ، وهكذا ، إذا قام به البعض ، سقط عن الباقين .

أما آحاد الناس ، فإنه يجب عليهم ما يلزمهم في خاصة أنفسهم .

ثم أجاب عن السؤال الثالث قائلا :

وَأَمَّا "الْعِلْمُ الْمُرَغَّبُ فِيهِ جُمْلَةً "هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي عَلَّمَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ لَكِنْ يُرَغَّبُ كُلُّ شَخْصٍ فِي الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ إلَيْهِ أَحْوَجُ؛ وَهُوَ لَهُ أَنْفَعُ وَهَذَا يَتَنَوَّعُ؛ فَرَغْبَةُ عُمُومِ النَّاسِ فِي مَعْرِفَةِ الْوَاجِبَاتِ والمستحبات مِنْ الْأَعْمَالِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ أَنْفَعُ لَهُمْ. وَكُلُّ شَخْصٍ مِنْهُمْ يَرْغَبُ فِي كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ وَقَعَتْ فِي قَلْبِهِ شُبْهَةٌ فَقَدْ تَكُونُ رَغْبَتُهُ فِي عَمَلٍ يُنَافِيهَا أَنْفَعَ مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ.

الشرح :

لما سأل السائل عن العلم المرغب فيه ، بين رحمه الله بأن العلم المرغب فيه ، هو علم النبوة، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [من يرد الله به خيرا ، يفقهه في الدين] ، بل قد قال الله تعالى {قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألبابْ} .

فكل علم نبوي ، وأثارة منه ، فإنها مرغب فيها ، لكن كل إنسان بحسبه ، قد يحسن نوعا من العلم ، يكون أولى في حقه من غيره .

والواجب على المرء أن يتقن علم الواجبات ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى المستحبات ، فإذا أتقن ما أوجب الله تعالى عليه من الفرائض ، فليتفقه فيما زاد عن ذلك من النوافل .

ثم إن من العلوم ما يستحق أن يقدمه على غيره ، كأن تعرض للإنسان شبهة ، يحتاج إلى جلائها ، فيطلب علم ذلك ، ليذهب الله تعالى عنه ما يجد ، ولا تعجبوا يا رعاكم الله ، أن يقع في المؤمن شيء من السؤال ، الم يقل الله عز وجل {فإن كنت في شك مما أوحينا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك } ؟ ألم يقل إبراهيم {رب أرني كيف تحيي الموتى قال بلى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي} فلا تدع شيئا يتلجلج في نفسك ، بل سل ، فإنما شفاء العي السؤال ، وإنما يؤتى الإنسان العلم ، بلسان سؤول ، وقلب عقول ، واثنان لا يتعلمان : مستحٍ ومستكبر ، فإن المستحي كلما هم أن يسأل انقمع ، خجلا من الناس ، والمستكبر كلما هم أن يسأل ، قال : ما يقول الناس عني ؟ سيقولون : لا يحسن كذا ؟ فيظل يتردد في جهله ، فكن متضعا للحق ، جريئا في الحق ، وسل عن أمر دينك ، ولا تبق في نفسك شيئا ، فليس في ديننا بحمد الله ، شيء مخفى ، وليس في ديننا شيء يُستحى منه ، بل هو دين البينة .

وَأَمَّا " الْيَقِينُ " فَهُوَ طُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ، وَاسْتِقْرَارُ الْعِلْمِ فِيهِ وَهُوَ مَعْنَى مَا يَقُولُونَ: " مَاءٌ يَقَنٌ " إِذَا اسْتَقَرَّ عَنْ الْحَرَكَةِ، وَضِدُّ الْيَقِينِ الرَّيْبُ. وَهُوَ نَوْعٌ مِنْ الْحَرَكَةِ وَالِاضْطِرَابِ يُقَالُ: رَابَنِي يَرِيبُنِي وَمِنْهُ فِي الْحَدِيثِ: { أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِظَبْيٍ حَاقِفٍ فَقَالَ لَا يَرِيبُهُ أَحَدٌ }[1] ثُمَّ الْيَقِينُ يَنْتَظِمُ مِنْهُ أَمْرَانِ: عِلْمُ الْقَلْبِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ. فَإِنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَعْلَمُ عِلْمًا جَازِمًا بِأَمْرٍ؛ وَمَعَ هَذَا فَيَكُونُ فِي قَلْبِهِ حَرَكَةٌ وَاخْتِلَاجٌ مِنْ الْعَمَلِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ ذَلِكَ الْعِلْمُ كَعِلْمِ الْعَبْدِ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ؛ وَلَا خَالِقَ غَيْرُهُ؛ وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ؛ فَهَذَا قَدْ تَصْحَبُهُ الطُّمَأْنِينَةُ إلَى اللَّهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ وَقَدْ لَا يَصْحَبُهُ الْعَمَلُ بِذَلِكَ؛ إمَّا لِغَفْلَةِ الْقَلْبِ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ وَالْغَفْلَةُ هِيَ ضِدُّ الْعِلْمِ التَّامِّ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ ضِدًّا لِأَصْلِ الْعِلْمِ، وَإِمَّا لِلْخَوَاطِرِ الَّتِي تَسْنَحُ فِي الْقَلْبِ مِنْ الِالْتِفَاتِ إلَى الْأَسْبَابِ وَإِمَّا لِغَيْرِ ذَلِكَ.

الشرح :

ما أحسن هذا السؤال ، وما أحسن الجواب عليه ، فقد سأل السائل سؤاله الرابع عن اليقين ، طلب اليقين، ما اليقين ؟ فأجاب الشيخ بكلمة ، وجملة واحدة ، فقال : "هو طمأنينة القلب واستقرار العلم فيه" ، هذا هو اليقين أيها الكرام ، طُمأنينة القلب ، بمعنى أن القلب لا يضطرب ، ولا يتردد ، بل يكون مطمئنا ، ويكون العلم مستقرا فيه ، يبلغ العبد هذا بالعلم والعمل معا ؛ ولهذا قال "ثم اليقين ينتظم منه أمران : علم القلب وعمل القلب " .

وبين الشيخ رحمه الله ، استمداد كلمة اليقين ، وهو من قول العرب "ماءٌ يَقَن" ، أي الماء المستقر الراكد ، يقال عنه : يقن .

واستدل أيضا بالمأثور في الحديث ، حينما مر النبي صلى الله عليه وسلم ، بظبي حاقف ، ومعنى حاقف أي: نائم ، ومنحنٍ في نومته ، فقال : لا يَريبه أحد ، أي : لا يحركه .

فيحصل هذا الحال للإنسان إذا امتلأ القلب علما بالله عز وجل ، وعلما بدينه وشرعه ، ثم انبعث القلب بالعمل ، وبين الشيخ رحمه الله ، أن إحدى هاتين الخَصلتين ، قد تتخلف عن صاحبتها ، فيقع أحيانا في القلب علم ، لكنه علم بارد ، يكون العبد يعلم بأن الله رب كل شيء ، وأنه خالق كل شيء ، وأنه على كل شيء قدير ، لكن هذا العلم علم راكد ، لا يصحبه حركة قلبية ، من التوكل ، واليقين ، والثقة ، فيكون ذلك نقصا وقصورا .

فلهذا قال الشيخ رحمه الله " فهذا قد تصحبه الطمأنينة إلى الله ، والتوكل عليه ، وهذا هو حال أهل اليقين ، وقد لا يصحبه العمل بذلك ، فلا ينتظم العلم والعمل معا" ، لماذا ؟ إما لغفلة القلب عن هذا العلم ، أي : عنده مخزن علمي ، لكنه قد وضعه في جانب من قلبه ، لا يستدعيه ، كأن يكون عندك في بيتك شيء من الأدوات ،

---

(1) (صحيح) أخرجه (أحمد 15450) و (النسائي 2818) و (مالك 1139) و (ابن حبان 5111 و 5112) .

أو المطعومات ، أو المشروبات ، تضعه في جانب من الدار وتنساه ، فلا تنتفع به ، مع أنه موجود عندك ، يوجد كثير من الناس عندهم علوم معلبة ، قد وضعوها في زاوية من زوايا القلب ونسوها ، فلا ينتفعون بها ؛ فلهذا قال "إما لغفلة القلب عن هذا العلم ، والغفلة هي : ضد العلم التام ، وإن لم تكن ضدا لأصل العلم " .

نعم ، الغفلة هي : ضد العلم التام ، أي : ضد العلم الذي يستوفي آثاره ، وفوائده ، ونتائجه ، وإن لم تكن أصلا لضد العلم .

"وإما للخواطر التي تسنح في القلب" قد يكون عند الإنسان علم ، وهذا العلم يستدعيه ، بين آونة وأخرى ، لكن ثَم موانع ، وعوائق ، تطرأ على القلب ، فتهجم عليه ، وهذا أمر معروف عند الآدميين ، فإن القلب إنما هو في الحقيقة ميدان لجندين ، وعسكرين : جند الرحمن ، وجند الشيطان ، فتارة يقوم جند الشيطان بحملة شيطانية ، لاحتواء القلب ، وتارة يقوم جند الرحمن في القلب ، باكتساح هذا الشيطان وجنده ، فيخرجونه منه ، كما قال الله تعالى {قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذي يوسوس في صدور الناس . من الجنة و الناس" .

فالشيطان كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ، يضع خرطومه على قلب ابن آدم ، ويجثم عليه ، فإذا ذكر الله انخنس ، هكذا ، فعلى المؤمن الموفق اللبيب ، الحازم ، أن يعزز الخطرات الإيمانية ، والواردات الرحمانية في قلبه ، حتى يضيق الخناق ، ويكتسح الخطرات الشيطانية ، ولا يدع لها موضعا في قلبه ، فيحصل على اليقين .

وأحيانا يطلق اليقين – كما تعلمون – على الموت ، كقول الله تعالى {واعبد ربك حتى يأتيك اليقين} ؛ لأنه مُتيقَّن ، من هذا الوجه .

وَفِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: {سَلُوا اللَّهَ الْيَقِينَ وَالْعَافِيَةَ فَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ بَعْدَ الْيَقِينِ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ الْعَافِيَةِ فَسَلُوهُمَا اللَّهَ}[1] فَأَهْلُ الْيَقِينِ إذَا ابْتُلُوا ثَبَتُوا؛ بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ فَإِنَّ الِابْتِلَاءَ قَدْ يُذْهِبُ إيمَانَهُ أَوْ يُنْقِصُهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾السجدة:٢٤ ، أَلَا تَرَى إلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾آل عمران 173 ، فَهَذِهِ حَالُ هَؤُلَاءِ ، و قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾الأحزاب:9 ، الى قوله : ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾الأحزاب:١١ - ١٢، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ المدثر: ٣١ الْآيَتَيْنِ.

الشرح :

إذا اجتمع للعبد هاتان الخصلتان ، فقد بلغ الغاية : اليقين والعافية ، اليقين وهو كما أسلف الشيخ رحمه الله : طُمأنينة القلب واستقرار العلم فيه ، ثم بعد ذلك العافية ، والمقصود بالعافية هو : أن يُجنب الفتن ، أو يبتلى فيعافى ، وذلك أنه لا يكاد يخلو أحد من ابتلاء ، كما قال الله تعالى {ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين} .

فاعلم يا عبد الله ، أنك إذا آمنت ، فإن الله تعالى ، سيمحص إيمانك ، فكن مستعدا ، لا تظن أن الإيمان بطاقة ، تُشترى وتوضع في الجيب ، أو شارة تُعلق يمنة أن يسرة ، لا ، الإيمان حقيقة قلبية ، يظهر الله صدقها من كذبها بالابتلاء ، فإذا اجتمع لك يقين ، وعافية ، فقد نجوت .

وقد ذكر الله تعالى أمثلة ، من حال هؤلاء ، وحال هؤلاء :

– فقال عن ثلة من عباده : {وجعلنا مهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون} فهم كانوا موقنين ، ثم ابتُلوا فصبروا ، فنجَوا .

---

(1) (صحيح) أخرجه (الترمذي 3514 ، 3558) و (أحمد 5 ، 17 ، 34 ، 44) و (ابن ماجه 3849) و (ابن حبان 952) و (النسائي في عمل اليوم و الليلة 880 ، 881 ، 882) .

– وذكر الله تعالى ، في سورة "الأحزاب" حال فريقين : حال المؤمنين الذين قال الله تعالى {وزلزلوا زلزالا شديدا} وثبتوا ، وقالوا {هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما} ، وحال المنافقين ، الذين قال الله تعالى عنهم {وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا} كان يقول قائلهم : هذا محمد يحدثكم عن قصور بُصرى في الشام ، وقصور اليمن ، وأحدنا لا يأمن أن يذهب لقضاء حاجته ! .

هكذا في الزلزال يهتز ما في القلوب ، ويتبين الفَلس من الدينار كما يقال ، فإذا رُزق الإنسان يقينا وعافية ، فقد نجا .

وَأَمَّا كَيْفَ يَحْصُلُ الْيَقِينُ فَبِثَلاثَةِ أَشْيَاءَ :

أَحَدُهَا : تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ .

وَالثَّانِي: تَدَبُّرُ الْآيَاتِ الَّتِي يُحْدِثُهَا اللَّهُ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ الَّتِي تُبَيِّنُ أَنَّهُ حَقٌّ.

وَالثَّالِثُ: الْعَمَلُ بِمُوجِبِ الْعِلْمِ قَالَ تَعَالَى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فصلت: ٥٣ **، وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْقُرْآنِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى:** ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ فصلت: ٥٢ ، ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ فصلت: ٥٣ الآيَةَ .

وَأَمَّا قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ الْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ: أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ إلَى اللَّهِ؛ وَأَنَّ الْمُرَادَ ذِكْرُ طَرِيقِ مَعْرِفَتِهِ بِالِاسْتِدْلَالِ بِالْعَقْلِ؛ فَتَفْسِيرُ الْآيَةِ بِذَلِكَ خَطَأٌ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ وَهُوَ مُخَالِفٌ لِمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا .

فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يَرَى الْآيَاتِ الْمَشْهُودَةَ لِيُبَيِّنَ صِدْقَ الْآيَاتِ الْمَسْمُوعَةِ مَعَ أَنَّ شَهَادَتَهُ بِالْآيَاتِ الْمَسْمُوعَةِ كَافِيَةٌ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَدُلَّ عِبَادَهُ بِالْقُرْآنِ بِمُجَرَّدِ الْخَبَرِ ،كَمَا يَظُنُّهُ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ يَظُنُّونَ أَنَّ دَلَالَةَ الْقُرْآنِ إنَّمَا هُوَ بِطَرِيقِ الْخَبَرِ، وَالْخَبَرُ مَوْقُوفٌ عَلَى الْعِلْمِ بِصِدْقِ الْمُخْبِرِ الَّذِي هُوَ الرَّسُولُ، وَالْعِلْمُ بِصِدْقِهِ مَوْقُوفٌ عَلَى إثْبَاتِ الصَّانِعِ؛ وَالْعِلْمِ بِمَا يَجِبُ وَيَجُوزُ وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ؛ وَالْعِلْمِ بِجَوَازِ بَعْثَةِ الرُّسُلِ؛ وَالْعِلْمِ بِالْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ وَيُسَمُّونَ هَذِهِ الْأُصُولَ الْعَقْلِيَّاتِ؛ لِأَنَّ السَّمْعَ عِنْدَهُمْ مَوْقُوفٌ عَلَيْهَا وَهَذَا غَلَطٌ عَظِيمٌ وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ ضَلَالِ طَوَائِفَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالْبِدَعِ .

الشرح :

إذن هذه إجابة السؤال الخامس ، وهو : كيف يحصل اليقين ؟ فبين الشيخ رحمه الله ، بأن اليقين يحصل بثلاث طرق :

الطريق الأول : تدبر القرآن .

إي والله ، وهذا من أعظمها ، وأسهلها ، لمن وفقه الله تعالى ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى ، إنما أنزل القرآن العظيم ليُتدبر ، لا ليُتغنى به فقط ، أو لتُزيَّن طبعاته بأغلفة الذهب ، وبالأغلفة الفاخرة ، أو أن يعلق على

الجدران، أو أن تشنف به الآذان ، وإن كان بعض ذلك مطلوبا مقصودا ، لكن المقصود الأعظم من القرآن العظيم ، هو : التدبر ، {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب} ، {أفلم يدبروا القول } {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} .

فالمقصود الأعظم من القرآن هو : تدبره ، فإذا رزق العبد تدبر القرآن ، بأن صار يمعن النظر في معانيه ، ويقلب الطرف في دواعيه ، وفي آثاره ، وتنزيلاته ، وغير ذلك ، انفتحت له من أبواب المعارف ما لم يخطر له بالحسبان .

كما ذكرنا آنفا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، أن قال : ولقد فتح الله تعالى علي في هذه القلعة ، من أبواب العلم بالقرآن ، ما مات كثير من الأكابر ، وهو يطلبه " .

فلا يزال القرآن العظيم يخرج كنوزا ، لا يخلق على كثرة الرد ، ولا تفنى عجائبه ، فالقرآن العظيم ، كنز ، ومنجم ، لأهل العلم والإيمان ، لا يزالون إلى يوم القيامة ، يستنبطون منه ، ويستخرجون من معانيه ، دون أن يكون ما يتبدى لهم مخالفا لما تبدى لمن قبلهم ، ولكنه مبارك ، كما وصفه الله تعالى ، لا ينقطع خيره وبره .

أما الطريق الثاني لتحقيق التدبر فهو : تدبر الآيات الآفاقية ، والنفسية ، ما يُحدثه الله تعالى في الأنفس والآفاق .

وهذه نعمة من الله عظيمة ؛ لأن التجدد هذا ، يمثل مددا مستمرا ، الله تعالى يجري من قدَره ، في ذات الشخص، وفي محيطه ، في الكون والآفاق ، وفي مُجريات الأحداث ، وأحوال بني آدم ، ما يحصل به اليقين ، ولأجل ذلك تجدون أناسا من العامة ، لا يستطيعون أن يضعوا سواد في بياض ، أميين ، وعندهم من اليقين ، ما ليس عند كثير من حملة الأقلام ، وأصحاب الشهادات العليا ؛ لأنهم انتفعوا من هذا الجانب ، وهو : تدبر ما يُحدثه الله تعالى من الآيات في الأنفس والآفاق ، تجد عند بعض الشيوخ والعجائز يقينا لا تزلزله الجبال .

الطريق الثالث هو : العمل بموجب العلم ، وسوف يتكلم عنه الشيخ لاحقا ، لكن الشيخ رحمه الله ، استدل ههنا، بقوله تعالى {حتى يتبين لهم أنه الحق} ، وقال : إن مرجع الضمير في قوله {أنه الحق} يرجع إلى القرآن ، لا إلى الله سبحانه وتعالى ، كما ادعى ذلك بعض الفلاسفة ، ومن تبعهم من المتكلمين ، واستدل بقول الله تعالى {قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به} ما المقصود ؟ القرآن العظيم ، {من أضل ممن هو في شقاق بعيد}.

بين الشيخ رحمه الله ، ضلال المتفلسفة ، ومن تبعهم من المتكلمة والمتصوفة ، وهذه مصطلحات ترد كثيرا ، في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

أما المتفلسفة : فنسبة إلى الفلسفة ، والفلسفة كلمة يونانية ، "فيلو سوفي" هذا أصل هذه الكلمة ، معناها : محبة الحكمة ، "فيلو" أي حب ، أو محبة ، "سوفي" أي : الحكمة ، فالفلسفة ليست علما إسلاميا ؛ ولهذا يخطئ من يسمي العقيدة الإسلامية ، الفلسفة الإسلامية ، ليس في الإسلام فلسفة ؛ لأن الفلسفة نتاج للعقل البشري ، تصيب وتخطئ ؛ بخلاف الوحي المعصوم .

وهؤلاء المتفلسفة الذين وجدوا في الحضارة اليونانية غالبا ، هم من يسمونهم بالأساطين ، مثل : فيثاغورث، وأفلاطون ، وسقراط ، وأرسطو ، هؤلاء لم يكونوا ينتمون إلى علم النبوة ، ولم يكونوا يتبعون الأنبياء ، بل كانوا مدارسَ بشرية :

منهم الرواقيون .

ومنهم المشاؤون .

ومنهم المسفسطون ، الذين ينكرون البدهيات .

فلهذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية ينعى عليهم ، ويحذر منهم .

وقد تأثر بهم المتكلمون ، الذين حدثناكم عنهم آنفا ، من فرق أهل القبلة ، من الجهمية ، والمعتزلة ، ومن تأثر بهم من الأشاعرة ، والماتوريدية ، وغير ذلك ، على درجات شتى ، كما تأثر بفلسفتهم أيضا المتصوفة ، وسيأتي مزيد كلام عن هؤلاء المتصوفة ، فكل هؤلاء يزعمون أن مرجع الضمير ، {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق} أن مرجع الضمير إلى الله ، وأن المقصود الأعظم ، هو إثبات الصانع ، وإثبات الخالق ، فغاية مراد المتكلمين في حديثهم عن العقائد ، إثبات وجود الله ، أو إثبات ربوبيته ، وهذا عجب ؛ لأن إثبات وجود الله ، وإثبات ربوبيته ، أمر لم يختلف عليه بنو آدم ، ولم ينازع فيه أحد ، بل هو أمر مغروز في الفطر ، والله تعالى لم يبعث الأنبياء والمرسلين ليقرروا وجود الله ، أو ليقرروا ربوبيته ، وإنما بعث الله النبيين ، لتوحيده في العبادة ، كما قال سبحانه وتعالى {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} فجميع أنبياء الله ، بعثوا بتوحيد العبادة ، ما بعثوا ليحققوا توحيد الربوبية ؛ لأن ذلك محل إقرار من بني آدم .

ولهذا صار هؤلاء المتكلمون ، الذين – وللأسف – استلبوا عقول كثير من المتأخرين ، صاروا يجعلون النصوص القرآنية ، موقوفة على العقل ، فتأمل فيما قال الشيخ ، أرجوا أن تفهموا هذه العبارات " يظنون – أي المتكلمين – أن دلالة القرآن ، إنما هو بطريق الخبر " أي : يزعم هؤلاء المتكلمون ، أن دِلالة القرآن ، دلالة السمع ، دليل الخبر فقط ، خبر مجرد عن التعقل ، خبر لا يستقل بذاته ، من ناحية الدلالة ، بل فقط لأنه من عند الله ، ولا يحمل إقناعا بحد ذاته ، أو يحمل دلالة سوى الدلالة النصية وحسبُ ؛ وبناء عليه يقولون : غن دلالة القرآن ، إنما هي بطريق الخبر ، وماذا أيضا ؟ والخبر موقوف على العلم بصدق المخبِر ، من المخبر ؟ النبي صلى الله عليه وسلم، الذي هو الرسول ، والعلم بصدقه ، بصدق المخبر ، موقوف على إثبات الصانع ، يقصدون بالصانع : الرب سبحانه وتعالى ، والعلم بما يجب ويجوز ويمتنع عليه ، والعلم بجواز بعثة الرسل ، والعلم بالآيات الدالة على صدقهم ، ويسمون هذه الأصول : العقليات .

فالمتكلمون إذا قرروا العقائد ، يقرروها بهذه الطريقة ، يشتغلون ، ويفنون الأعمار ، ويسودون الصفحات في إثبات الصانع ، وما يجب ، وما يجوز ، وما يمتنع عليه ، وببعثة الرسل ، وبصدق المخبر ، بطريقة لم يسلكها النبي

صلى الله عليه وسلم ، ولم يسلكها الصحابة ولا التابعون ، هذا المسلك الذي سلكه المتكلمون ، ضيعوا فيه الأوقات ، وأفنوا فيه الأعمار ، ولبسوا فيه على الأمة ، وانصرفوا عن المنهج الرشيد، الذي أتى به النبي صلى الله عليه وسلم ، كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يدعو الناس ، إلى ما أنزل إليه من ربه ، لا يرتب لهم هذه المقدمات العقلية ، ويرى أنها ضرورية لإثبات قبول القرآن ، بل يخاطبهم بالقرآن رأسا ، كان يقف في الموسم على القبائل ، ويقول :[ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ؟ فإن قريشا منعوني أن أبلغ كلام ربي] ، هل كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يأتي بهذه المقدمات الكلامية ، مقدمة ، ثم مقدمة ، ثم نتيجة ، ويقررها بهذه الطريقة الآلية ؟ كلا ، كان يتلو كتاب الله محضا ، طريا ، غضا ، فيسمعه الناس ، فيؤمنون به .

بل قد قال ربنا عز وجل {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله} ما قال : حتى يقبل بالمقدمات العقلية ، التي هذا وصفها ، وهذه حكايتها ، فلا شك أن هذا غلط عظيم ، كما وصفه شيخ الإسلام.

طريقة المتكلمين في إثبات العقائد ، طريقة باطلة ، مَضْيعة للوقت ، هذا إن سلمت من الخطأ ولا تسلم ، فقال "هذا غلط عظيم ، وهو من أعظم ضلال طوائف من أهل الكلام والبدع" .

فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَيَّنَ فِي كِتَابِهِ كُلَّ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أُصُولِ الدِّينِ ، قَرَّرَ فِيهِ التَّوْحِيدَ؛ وَالنُّبُوَّةَ؛ وَالْمُعَادَ بِالْبَرَاهِينِ الَّتِي لَا يَنْتَهِي إِلَى تَحْقِيقِهَا نَظَرٌ؛ خِلَافَ الْمُتَكَلِّمِينَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَالْفَلَاسِفَةِ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَاحْتَجَّ فِيهِ بِالْأَمْثَالِ الصَّمَدِيَّةِ؛ الَّتِي هِيَ الْمَقَايِيسُ الْعَقْلِيَّةُ الْمُفِيدَةُ لِلْيَقِينِ وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

الشرح :

الحمد لله ، أي : أراد الشيخ أن يبين بأن القرآن العظيم ، مكتمل ، أن القرآن العظيم فيه الغَناء ، والكفاية التامة ، ففي القرآن العظيم أصول الدين ، ما أصول الدين الكبار ؟ التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، كل هذه في كتاب الله ، مبسوطة ، مقررة ، ثم هي ليست مبسوطة ومقررة بمجرد الخبر المتروع من التعقل ، لا ، هي مقرونة بأدلتها العقلية ، ومن تأمل القرآن العظيم ، ورأى كيف أن الله سبحانه وتعالى يقيم الأدلة المختلفة ، على صدق الأخبار ، لوجد أن ما يشتغل به المتكلمون مجرد عبث .

تأمل مثلا قول الله عز وجل في تقرير التوحيد {ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا} أي لو كان الأمر كذلك {لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب..} تأمل ، كيف أن الله سبحانه وتعالى جعلهم أمام أمر عقلي .

مثال آخر : قال الله تعالى {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون} ؟ لما سمعها جبير بن مطعم ، وكان قد أُسر يوم بدر ، وربط مع أسرى بدر في سواري المسجد ، وقرأ بها النبي صلى الله عليه وسلم ، في سورة الطور ، قال: كاد قلبي أن يطير ، وذلك أول ما دخل الإيمان في قلبه ، فالقرآن العظيم يتضمن آيات ذات دلالة عقلية مقنعة ، خلاف دعوى المتكلمين ، الذين يزعمون أنه خبر مجرد فقط .

وَأَمَّا الْآيَاتُ الْمَشْهُودَةُ فَإِنَّ مَا يُشْهَدُ وَمَا يُعْلَمُ بِالتَّوَاتُرِ: مِنْ عُقُوبَاتِ مُكَذِّبِي الرُّسُلِ وَمَنْ عَصَاهُمْ، وَمِنْ نَصْرِ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي وَقَعَ وَمَا عُلِمَ مِنْ إكْرَامِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ طَاعَتِهِ وَجَعْلِ الْعَاقِبَةِ لَهُ وَانْتِقَامِهِ مِنْ أَهْلِ مَعْصِيَتِهِ وَجَعْلِ الدَّائِرَةِ عَلَيْهِمْ: فِيهِ عِبْرَةٌ تُبَيِّنُ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ؛ وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يُوَافِقُ الْقُرْآنَ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ ﴾ إلَى قَوْلِهِ: ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢ ﴾ الحشر: ٢ .

فَهَذَا بَيِّنٌ الِاعْتِبَارِ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَإِنْ كَانَ قَدْ تَنَاوَلَ الِاعْتِبَارَ فِي فُرُوعِهِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِى فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ ﴾ آل عمران: ١٣ إلَى قَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِى ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝١٣ ﴾ آل عمران: ١٣ .

الشرح :

آمل أنكم تتابعون طريقة الشيخ في حسن عرضه وترتيبه ، فإن هذا ما يسمى باللف والنشر ، فإن الشيخ رحمه الله رتب أولا ما يحصل به اليقين ، فقال : هي ثلاثة أمور ، ما الأول ؟ تدبر القرآن ، ثم بين الشيخ فيما قررناه سابقا ، كيف أن القرآن يدل بذاته على الحقائق الإيمانية ، دون حاجة إلى ما أحدثه المتكلمون .

ثم انتقل إلى "ثانيا" : وهو تدبر الآيات ، التي يحدثها الله في الأنفس والآفاق ، فقال ههنا في القطعة التي قرأناها أخيرا "وأما الآيات المشهودة" ، المقصود بالآيات المشهودة : التي يحدثها الله تعالى في الأنفس والآفاق ، فإنه قد جرى في مطاوي التاريخ ، وفي أركان الكرة الأرضية ، من الأحداث العظام ، من إهلاك الأمم المكذبة لأنبيائها ، .. ما يدعو للتفكر والاعتبار ، فضلا عما يقع للإنسان في خاصة نفسه ، فهذه أيضا مما يُستجلب بها اليقين .

ثم انتقل إلى المصدر الثالث الذي يحصل به اليقين ، وهو العمل بموجب العلم ، فقال :

وَأَمَّا الْعَمَلُ، فَإِنَّ الْعَمَلَ بِمُوجِبِ الْعِلْمِ يُثْبِتُهُ وَيُقَرِّرُهُ وَمُخَالَفَتُهُ تُضْعِفُهُ؛ بَلْ قَدْ تُذْهِبُهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥ ﴾ الصف: ٥ ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ الأنعام: ١١٠، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ۝٦٦ ﴾ الآيات . وَقَالَ: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ ﴾ المائدة: 15 ، ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ المائدة: ١٦ الْآيَةَ ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ ﴾ الحديد: ٢٨ الْآيَةَ .

الشرح :

ما شاء الله ، هذا الطريق أيها الكرام طريق عظيم ، لتثبيت اليقين ، وهو : العمل بما أُمر به العبد ، فإن الإنسان إذا عمل بما أمر به ، كان ذلك بمثابة مَن يدق المسامير ، ويثبت الشيء بالشيء ، وإذا اقتصر الإنسان على المجادلات النظرية ، والقيل والقال ، فإن هذا شيء يطير بالهواء .

فلهذا العمل بموجب العلم ، يثبته ، ويقرره ، ومخالفته تضعفه ، وقد قيل :

العلم يهتف بالعمل .. فإن أجاب وإلا ارتحل

فينبغي للإنسان أن يقرن بين الأمرين ، ولهذا كانت حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة ، حقيقةً مركبة من أمرين : من العلم ، والعمل ، فالإيمان قول وعمل .

فالقول : هو ما يكون في القلب .

والعمل هو : ما يكون في القلب واللسان والجوارح .

فلا بد من الجمع بين الأمرين ، وانظر كيف أن الله سبحانه وتعالى نعى على قوم فرقوا بين العلم والعمل ، فقال {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} زاغوا : أي لم يستجيبوا لأمر الله ، و لم يمتثلوا ، فأزاغ الله قلوبهم .

وقال أيضا {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة} لأنهم لم يقرنوه بالعمل ، ولذلك قال {ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا} لكنهم تنكبوا الطريق ، و لم يعملوا .

وكذلك قوله {قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه} إذن من لم يتبع ، ومن لم يعمل ، لا يحصل له الهدى الموعود .

وقل مثل ذلك في قول الله تعالى {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله} وتقوى الله ما هي ؟ امتثال أوامره ، واجتناب مناهيه .

ولهذا يا عبد الله ، إذا كان في نفسك من بعض الأمور تردد ، وعدم اتضاح ، فَلِجْ في هذا الأمر ، وادخل فيه ، ستجد أن الله تعالى يفتح عليك فيه ما لم يكن لك في الحسبان ، ولا تكتفِ بالأخذ والرد ، وسماع كلام العلماء ، وأقوالهم ، بل أنت مارس بنفسك ، ستجد أن الله سبحانه وتعالى ، فتح عليك من اليقين ما لا تصفه الكلمات .

وَأَمَّا الْعِلْمُ فَيُرَادُ بِهِ فِي الْأَصْلِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: الْعِلْمُ بِهِ نَفْسِهِ؛ وَبِمَا هُوَ مُتَّصِفٌ بِهِ مِنْ نُعُوتِ الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ أَسْمَاؤُهُ الْحُسْنَى. وَهَذَا الْعِلْمُ إذَا رَسَخَ فِي الْقَلْبِ أَوْجَبَ خَشْيَةَ اللَّهِ لَا مَحَالَةَ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ يُثِيبُ عَلَى طَاعَتِهِ؛ وَيُعَاقِبُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ؛ كَمَا شَهِدَ بِهِ الْقُرْآنُ وَالْعِيَانُ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ أَبِي حَيَّانَ التيمي – أَحَدِ أَتْبَاعِ التَّابِعِينَ – الْعُلَمَاءُ ثَلَاثَةٌ: عَالِمٌ بِاَللَّهِ لَيْسَ عَالِمًا بِأَمْرِ اللَّهِ، وَعَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَيْسَ عَالِمًا بِاَللَّهِ، وَعَالِمٌ بِاَللَّهِ وَبِأَمْرِ اللَّهِ. فَالْعَالِمُ بِاَللَّهِ الَّذِي يَخْشَى اللَّهَ وَالْعَالِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ الَّذِي يَعْرِفُ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ. وَقَالَ رَجُلٌ لِلشَّعْبِيِّ: أَيُّهَا الْعَالِمُ فَقَالَ: إنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ يَخْشَى اللَّهَ. وَقَالَ – عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: كَفَى بِخَشْيَةِ اللَّهِ عِلْمًا وَكَفَى بِالِاغْتِرَارِ بِاَللَّهِ جَهْلًا.

الشرح :

الله أكبر ، لما كان آخر أسئلة السائل ، عن العلم بالله ، بين الشيخ رحمه الله ، بأن العلم بالله يراد به أحد أمرين :

الأمر الأول : العلم به نفسه ، سبحانه وبحمده ، أي : العلم بالله ، بمقتضى أسمائه وصفاته ، وهذا أيها الكرام هو أشرف أنواع العلم على الإطلاق ؛ لأن الله تعالى لما كان أشرف معلوم ، كان العلم به أشرفَ أنواع العلوم ، فلا يمكن أن يداني هذا العلم علم ، فينبغي أن يكون حرص العبد على تحصيل هذا العلم ، واعتباره الفقه الأكبر ، كما سماه أبو حنيفة ، رحمه الله ، فإنه لما كتب أوراقا في أصول الدين ، سماها الفقه الأكبر ، فالعلم بالله عز وجل، هو أشرف أنواع العلوم ، وذلك أن يعرف العبد ربه ،بما أخبر به عن نفسه، أو أخبر عنه نبيه صلى الله عليه وسلم، نفيا ، وإثباتا .

وهذا العلم إذا حصل للإنسان ، فإنه لا بد ، لا بد ، أن يحدث في القلب خشية ، انظروا أيها الكرام ، كيف يقول الله عز وجل {إنما يخشى الله من عباده العلماء} إنما : أداة حصر ، فلا يمكن أن تحصل خشية ، إلا بعلم ، وفرق بين الخشية والخوف ، ربما يقع خوف ، لكن الخشية أرقى :

الخشية : خوف مقرون بعلم ؛ فلهذا قال {إنما يخشى الله من عباده العلماء} ، وقال سبحانه مبينا أثر العلم على أهله {إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا} ما الذي أجرى مدامعهم ؟ ما الذي يخرون من عليائهم، حتى يضعوا جباههم ، يعفرونها بالتراب ، إلا شيء قام في قلوبهم ، هذا هو العلم النافع، العلم إن لم يزدك من الله خشية ، زادك من الله بعدا ، العلم المطلوب هو العلم الذي تكون ثمرته الخشية .

وقد ذكر نقلا عن أبي حيان التيمي ، واسمه : يحيى بن سعيد بن حيان ، التيمي ، وهو كوفي ، من أتباع التابعين ، ثقة عابد ، كما قال عنه ابن حجر رحمه الله ، في "تقريب التهذيب" ووقع في نسخة "الفتاوى" أبي حبان ، وهذا تصحيف .

يقول : العلماء ثلاثة :

- عالم بالله ، ليس عالما بأمر الله .
- وعالم بأمر الله ، ليس عالما بالله .
- وعالم بالله وبأمر الله .

أي هذه أرقى وأعلى ؟ من جمع الأمرين ، أن يعلم بالله وبأمر الله ، فيعلم بالله ، ويقوم في قلبه من الخشية ، والمحبة، والرجاء ، والتوكل ، والأنس ، والشوق .

ويعلم كيف يعبد الله ، بأن يعلم مراد الله ، وأمر الله ، وشرع الله ، فهذا هو العالم حقا .

ويَقْصرُ من فاتته إحدى الخصلتين ، فمن الناس من يكون عنده زيادة في حصة العلم القلبي ، والتعظيم ، ونقص في حصة العلم بالشرع ، فربما عبد الله على غير بينة ، ووقع في البدعة .

وربما يوجد من أهل العلم ، من يكون يعلم بشرع الله كثيرا ، لكن عنده جفاء وقسوة وغلظة في القلب ، فلا يجد باعثا يبعثه على عبادة الله عز وجل .

ولما قال رجل للشعبي : أيها العالم ، قال : إنما العالم من يخشى الله ، وهذا تواضع منه ، وإلا فإنه من أجل العلماء.

وابن مسعود كلامه شبيه بكلام النبوة ، يقول رضي الله عنه : "كفى بخشية الله علماء ، وكفى بالاغترار به جهلا" .

وَالنَّوْعُ الثَّانِي يُرَادُ بِالْعِلْمِ بِاَللَّهِ : الْعِلْمُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : {أَنَّهُ تَرَخَّصَ فِي شَيْءٍ فَبَلَغَهُ أَنَّ أَقْوَامًا تَنَزَّهُوا عَنْهُ فَقَالَ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنْ أَشْيَاءَ أَتَرَخَّصُ فِيهَا وَاَللَّهِ إنِّي لَأَعْلَمُكُمْ بِاَللَّهِ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ}[1] وَفِي رِوَايَةٍ {وَاَللَّهِ إنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمُكُمْ بِحُدُودِهِ} فَجَعَلَ الْعِلْمَ بِهِ هُوَ الْعِلْمَ بِحُدُودِهِ. وَقَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِ التَّابِعِينَ فِي صِفَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ قَالَ: إنْ كَانَ اللَّهُ فِي صَدْرِي لَعَظِيمًا وَإِنْ كُنْت بِذَاتِ اللَّهِ لَعَلِيمًا أَرَادَ بِذَلِكَ أَحْكَامَ اللَّهِ .

الشرح :

إذن هذا هو النوع الثاني ، وهو العلم بشرع الله ، فلا بد من اقتران العلمين ، حتى تتحقق العبودية لله عز وجل .

ثم إن الشيخ رحمه الله ، كما هو معروف في طريقته ، يستطرد أحيانا في بعض المسائل ، فلما نقل هذا القول عن علي بن أبي طالب ، وهو قوله "وإن كنت بذات الله لعليما" استطرد في تحرير هذه اللفظة ، لفظة "الذات" وما المراد بها عند المتقدمين ، وما المراد بها عند المتقدمين ، وعند المتأخرين ، فاستمعوا ، هذا تحرير للمسألة ، لا تكاد تجده في غير هذا الموضع .

---

(1) (متفق عليه) (البخاري 6101 ، 7301) (مسلم 356 – 127 ، 128 -) و أخرجه (أحمد 24180 ، 25481).

فَإِنَّ لَفْظَ الذَّاتِ فِي لُغَتِهِمْ لَمْ يَكُنْ كَلَفْظِ الذَّاتِ فِي اصْطِلَاحِ الْمُتَأَخِّرِينَ بَلْ يُرَادُ بِهِ مَا يُضَافُ إلَى اللَّهِ كَمَا قَالَ خبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ * يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ)[1] . وَمِنْهُ الْحَدِيثُ : {لَمْ يَكْذِبْ إبْرَاهِيمُ إلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ كُلُّهَا فِي ذَاتِ اللَّهِ}[2] ، مِنْهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ ﴾ الأنفال: ١ ، ﴿ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٦ ﴾ الحديد: ٦ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ. فَإِنَّ ذَاتَ تَأْنِيثُ (ذُو) وَهُوَ يُسْتَعْمَلُ مُضَافًا يُتَوَصَّلُ بِهِ إلَى الْوَصْفِ بِالْأَجْنَاسِ فَإِذَا كَانَ الْمَوْصُوفُ مُذَكَّرًا قِيلَ ذُو كَذَا؛ وَإِنْ كَانَ مُؤَنَّثًا قِيلَ ذَاتُ كَذَا كَمَا يُقَالُ ذَاتُ سِوَارٍ. فَإِنْ قِيلَ أُصِيبَ فُلَانٌ فِي ذَاتِ اللَّهِ فَالْمَعْنَى فِي جِهَتِهِ وَوُجْهَتِهِ: أَيْ فِيمَا أَمَرَ بِهِ وَأَحَبَّهُ؛ وَلِأَجْلِهِ.**

الشرح :

إذن هذا تحرير هذه المسألة ، فلو قال قائل : هل الذات يعبر بها عن الله عز وجل ؟ قيل : نعم ، يعبر بها ، لكن استعمالها عند المتقدمين ، يختلف عن استعمالها عند المتأخرين ، فإن جيل الصحابة والتابعين ، إذا عبروا بالذات ، يقصدون بها كما قال : الجهة ، والوِجهة .

فخبيب رضي الله عنه ، في القصة المشهورة ، التي في صحيح البخاري ، قال :

وذلك في ذات الإله وإن يشأ *** يبارك على أوصال شلو ممزع

في ذات الله أي : في جهته ، وفي شأنه ، ولأجله ، ونحو ذلك .

أما استعمال المتأخرين لكلمة ذات فيقصدون بذات أي : نفس ، ولا مشاحة في الاصطلاح ، لكن هذا يرفع الإشكال فيما أثر عن علي رضي الله عنه في قوله "وإن كنت بذات الله لعليما" فلا يقولن قائل : هل هذا ادعاء لعلم الكيفية ؟ حاشا وكلا ، فلا يريد رحمه الله بمصطلح ذات الإله ، ما يريده المتأخرون ، من حقيقة الشيء وكيفيته ، وإنما مراده ما كان من جهته ووجهته ، وشأنه من العلم بأسمائه وصفاته ، فهذا هو تحرير هذه المسألة .

استكمل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، الإجابة عن المسائل الست التي ألقاها عليه السائل ، ولما كان آخر مسألة تتعلق بالعلم بالله تعالى ، جرى استطراد للحديث عن مسألة الذات والصفات ، وسوف تسمعون فيما يأتي

---

(1) راجع (البخاري 3045 ، 4086 ، 7402) (أحمد 7928 ، 8096) (مسند ابي داود 2720) (سير أعلام النبلاء ، ترجمة 40 ، ج1 ، ص 246) .

(2) (متفق عليه) (البخاري 3357 ، 3358 ، 5084) (مسلم 2371) و أخرجه (أحمد 9241) و (الترمذي 3166) و (ابن حبان 5737) .

بيانا لمشكلة أثارها المتكلمون ، وهي : مسألة الصفة والموصوف ، وهل الصفات زائدة على الذات أم لا ؟ وهل الصفة عين الموصوف أم غيرُه ؟ هناك مسائل سماها بن جرير الطبري رحمه الله قال : هذه من الحماقات الحادثة . ما كان الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون يشتغلون بها ، حتى أحدثها المتكلمون ، بناء على أصولهم الفاسدة ، فكان الجهمية والمعتزلة ، الذين يقوم مبدؤهم على نفي الصفات عن الله عز وجل ، يعدون هذه الصفات شيئا زائدا ، ومخالفوهم من الصفاتية ، الذين الأصل عندهم الإثبات : كالكلابية والأشاعرة والماتوريدية ، وافقوهم على أنها زائدة ، فجرى التباس في هذه المسألة ، فأماط شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، اللثام عن سر هذه المسألة ، وأزاح الإجمال بالبيان والتفصيل ، وإلا فإن بحث مثل هذه المسائل لا ينبغي ابتداء ، لكن أمّا وقد قيل : إنه ينبغي لأهل العلم والإيمان إزالة الشبهة ، حتى لا يعلق في النفوس شيء يعارض خبر الله ورسوله ، فلنستمع إلى ما قال .

ثُمَّ إنَّ الصِّفَاتِ لَمَّا كَانَتْ مُضَافَةً إلَى النَّفْسِ فَيُقَالُ فِي النَّفْسِ أَيْضًا إنَّهَا ذَاتُ عِلْمٍ وَقُدْرَةٍ وَكَلَامٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ حَذَفُوا الْإِضَافَةَ وَعَرَّفُوهَا فَقَالُوا: الذَّاتُ الْمَوْصُوفَةُ أَيْ النَّفْسُ الْمَوْصُوفَةُ فَإِذَا قَالَ هَؤُلَاءِ الْمُؤَكِّدُونَ " الذَّاتُ " فَإِنَّمَا يَعْنُونَ بِهِ النَّفْسَ الْحَقِيقِيَّةَ؛ الَّتِي لَهَا وَصْفٌ وَلَهَا صِفَاتٌ .

الشرح :

إذن بهذا تبين الفرق بين مصطلح المتقدمين ، ومصطلح المتأخرين في لفظ الذات ، فالصحابة والتابعون إذا عبروا بالذات ، يريدون بها كما قال رحمه الله : جهته ووجهته .

وأما المتأخرون فإنهم يقصدون بها نفس الله سبحانه وتعالى ، النفس الحقيقية التي تقوم بها الصفات ، وهذا اصطلاح حادث .

وَالصِّفَةُ وَالْوَصْفُ تَارَةً يُرَادُ بِهِ الْكَلَامُ الَّذِي يُوصَفُ بِهِ الْمَوْصُوفُ؛ كَقَوْلِ الصَّحَابِيِّ فِي ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ الإخلاص: 1 **أُحِبُّهَا لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ** (1) **وَتَارَةً يُرَادُ بِهِ الْمَعَانِي الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْكَلَامُ: كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ.**

الشرح :

بين الشيخ رحمه الله في هذه الجزئية ، أن لفظ الصفة والوصف له استعمالان :

– فتارة يراد به نفس المقالة ، أو نفس النص المقروء أو المكتوب .

كقول الصحابي الذي بعثه النبي صلى الله عليه وسلم على سرية ، فكان يقرأ في كل ركعة بـــ {قل هو الله أحد} ويقرأ معها سورة ، فكان أصحابه أنكروا عليه ذلك ، وذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، لما عادوا، فقال [سلوه لأي شيء يفعل ذلك ؟] فقال : إنها صفة الرحمن ، فأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال [أخبروه أن الله يحبه كما أحبه]قال : صفة الرحمن ، يريد بذلك سورة الإخلاص ، هذا معنى قول الشيخ "تارة يراد بها الكلام الذي يوصف به الموصوف" فسميت سورة الإخلاص صفة الرحمن ، فقط أطلق لفظ الصفة ، على نفس الكلام الذي يُعبرَّ به الموصوف ، وتارة وهو الأعم الأكثر ، يراد بها : المعاني التي دل عليها الكلام ، فيقال : صفة العلم ، صفة القدرة ، صفة الإرادة ، صفة المحبة .

ثم بين ما خاضت فيه الجهمية والمعتزلة فقال :

---

(1) قال ابن حجر في لسان الميزان : (**والحديث المشار إليه هو في قصة لمعاوية بن معاوية الذي مات بالمدينة فصلى عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتبوك وحديثه علم من أعلام النبوة وله طرق يقوى بعضها ببعض وذكر بها في ترجمة معاوية في الصحابة**) (5 / 18) .

وَالْجَهْمِيَّة وَالْمُعْتَزِلَةُ وَغَيْرُهُمْ تُنْكِرُ هَذِهِ وَتَقُولُ: إنَّمَا الصِّفَاتُ مُجَرَّدُ الْعِبَارَةِ الَّتِي يُعَبَّرُ بِهَا عَنْ الْمَوْصُوفِ. والْكُلَّابِيَة وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنْ الصفاتية قَدْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الصِّفَةِ وَالْوَصْفِ فَيَجْعَلُونَ الْوَصْفَ هُوَ الْقَوْلَ؛ وَالصِّفَةَ الْمَعْنَى الْقَائِمَ بِالْمَوْصُوفِ. وَأَمَّا جَمَاهِيرُ النَّاسِ فَيَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ لَفْظِ الصِّفَةِ وَالْوَصْفِ مَصْدَرٌ فِي الْأَصْلِ؛ كَالْوَعْدِ وَالْعِدَةِ؛ وَالْوَزْنِ وَالزِّنَةِ؛ وَأَنَّهُ يُرَادُ بِهِ تَارَةً هَذَا؛ وَتَارَةً هَذَا.

الشرح :

هناك طائفتان متقابلتان ، وهما :

- أهل الإثبات .
- وأهل التعطيل .

أهل التعطيل هم : الجهمية والمعتزلة ، لأن مبنى مذهبهم على أن الله سبحانه وتعالى ، ليس له صفة حقيقية في ذات الأمر ، الجهمية ومن بعدهم المعتزلة ، يعتقدون عقيدة فاسدة ، يعتقدون في قرارة أنفسهم ، أنه لا يمكن أن يقوم بالله صفات ، حتى إن الجهمية يقولون : هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق ، هكذا يقولون ، ما معنى قولهم: بشرط الإطلاق ؟ أي : لا يتقيد بصفة ، ومُؤدى قولهم : أن الله هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق ، أن يكون الله مجرد فكرة في الأذهان ، لا يمكن أن يكون في خارج الذهن ، وهذا والعياذ بالله ، تعطيل محض ، والمعتزلة ساروا على أصلهم ، إلا أن المعتزلة لفقوا ، فقالوا : نثبت الأسماء ولا نثبت الصفات ، بينما الجهمية أنكروا الأسماء والصفات .

يقابل هؤلاء من سُموا بـــ الصفاتية ، وهم في الأصل من عموم أهل الإثبات ، لكن أهل الإثبات الحقيقي ، هم أهل السنة والجماعة ، هم الذين يثبتون ما أثبت الرب لنفسه ، أو أثبته له نبيه ، صلى الله عليه وسلم ، ولكن طائفة من المعظمين للسلف ، تأثروا بشبهات المعتزلة والجهمية ، فجاء مذهبهم ملفقا ، بين مذهب النفاة ، ومذهب أهل الإثبات الحقيقي ، فسموا صفاتية ؛ لأنهم يثبتون الصفات ، لكنهم ما تمحضوا بالسنة المحضة ، فلذلك وقعوا في بعض الأخطاء ، ومن هؤلاء : الكلابية ، المنسوبون إلى عبد الله بن سعيد بن كُلّاب ، ومنهم الأشعرية ، المنسوبون إلى أبي الحسن الأشعري ، والماتريدية ، المنسوبون إلى أبي منصور ، الماتريدي ، ومنهم أتباع أبي العباس القلانسي ، ومنهم أتباع الحارث بن أسد ، المحاسبي ، ونحو هؤلاء ، هؤلاء جميعا يقال عنهم : صفاتية؛ لأن الأصل فيهم الإثبات ، وهم في مواجهة مع المعتزلة ، بينهم حرب شعواء ، بين الأشاعرة والمعتزلة ، لكنهم لم يتمحضوا للسنة المحضة ، ولذلك ألزمهم المعتزلة بكثير من شبهاتهم .

وَلَمَّا كَانَ أُولَئِكَ الْجَهْمِيَّة يَنْفُونَ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ وَصْفٌ قَائِمٌ بِهِ: عِلْمٌ أَوْ قُدْرَةٌ؛ أَوْ إرَادَةٌ أَوْ كَلَامٌ – وَقَدْ أَثْبَتَهَا الْمُسْلِمُونَ – صَارُوا يَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ أَثْبَتُوا صِفَاتٍ زَائِدَةً عَلَى الذَّاتِ. وَقَدْ صَارَ طَائِفَةٌ مِنْ مُنَاظِرِيهِمْ الصفاتية يُوَافِقُونَهُمْ عَلَى هَذَا الْإِطْلَاقِ وَيَقُولُونَ: الصِّفَاتُ زَائِدَةٌ عَلَى الذَّاتِ الَّتِي وَصَفُوا – لَهَا صِفَاتٌ وَوَصْفٌ – فَيُشْعِرُونَ النَّاسَ أَنَّ هُنَاكَ ذَاتًا مُتَمَيِّزَةً عَنْ الصِّفَاتِ وَأَنَّ لَهَا صِفَاتٍ مُتَمَيِّزَةً عَنْ الذَّاتِ. وَيُشَنِّعُ نفاة الصِّفَاتِ بِشَنَاعَاتِ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهَا وَقَدْ بَيَّنَّا فَسَادَهَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الذَّاتَ الْمَوْصُوفَةَ لَا تَنْفَكُّ عَنْ الصِّفَاتِ أَصْلًا وَلَا يُمْكِنُ وُجُودُ ذَاتٍ خَالِيَةٍ عَنْ الصِّفَاتِ .

الشرح :

تأملوا هذه الجملة المحكمة ، قال : والتحقيق أن الذات الموصوفة ، لا تنفك عن الصفات أصلا ، ولا يمكن وجود ذات خالية من الصفات ، هذا نقض لأصل مذهب النفاة ، أهل التعطيل ، والعياذ بالله ، فإنه لا يمكن أن توجد ذات لا تقوم بها صفات ، لا بد لكل ذات من صفات ، لو لم يكن إلا صفة الوجود ، فإذا أقروا بأن ذات الرب سبحانه وتعالى ، متصفة بالوجود ، ولا بد لهم أن يقروا أنها متصفة بالعلم ، ولا بد لهم أن يقروا أنها متصفة بالقدرة ، معنى ذلك : أنه قد انخرم مبدؤهم ، فالذي يسوغ لهم قبول هذه إثبات هذه الصفات ، يسوغ لهم قبول الباقي .

فَدَعْوَى الْمُدَّعِي وُجُودُ حَيٍّ عَلِيمٍ قَدِيرٍ بَصِيرٍ بِلَا حَيَاةٍ وَلَا عِلْمٍ وَلَا قُدْرَةٍ؛ كَدَعْوَى قُدْرَةٍ وَعِلْمٍ وَحَيَاةٍ لَا يَكُونُ الْمَوْصُوفُ بِهَا حَيًّا عَلِيمًا قَدِيرًا بَلْ دَعْوَى شَيْءٍ مَوْجُودٍ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ قَدِيمٍ أَوْ مُحْدَثٍ عَرِيَ عَنْ جَمِيعِ الصِّفَاتِ مُمْتَنِعٌ فِي صَرِيحِ الْعَقْلِ .

وَلَكِنَّ الْجَهْمِيَّة الْمُعْتَزِلَةَ وَغَيْرَهُمْ؛ لَمَّا أَثْبَتُوا ذَاتًا مُجَرَّدَةً عَنْ الصِّفَاتِ صَارَ مُنَاظِرُهُمْ يَقُولُ: أَنَا أُثْبِتُ الصِّفَاتِ زَائِدَةً عَلَى مَا أَثْبَتُّمُوهُ مِنْ الذَّاتِ؛ أَيْ لَا أَقْتَصِرُ عَلَى مُجَرَّدِ إثْبَاتِ ذَاتٍ بِلَا صِفَاتٍ. وَلَمْ يَعْنِ بِذَلِكَ أَنَّهُ فِي الْخَارِجِ ذَاتٌ ثَابِتَةٌ بِنَفْسِهَا؛ وَلَا مَعَ ذَلِكَ صِفَاتٌ هِيَ زَائِدَةٌ عَلَى هَذِهِ الذَّاتِ مُتَمَيِّزَةٌ عَنْ الذَّاتِ وَلِهَذَا كَانَ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: الصِّفَاتُ غَيْرُ الذَّاتِ. كَمَا يَقُولُهُ الْمُعْتَزِلَةُ؛ والكَرَّامِيَة؛ ثُمَّ الْمُعْتَزِلَةُ تَنْفِيهَا: والكَرَّامِيَة تُثْبِتُهَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: الصِّفَةُ لَا هِيَ الْمَوْصُوفُ وَلَا هِيَ غَيْرُهُ. كَمَا يَقُولُهُ طَوَائِفُ مِنْ الصفاتية كَأَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ كَمَا قَالَتْ الْأَئِمَّةُ: لَا نَقُولُ الصِّفَةُ هِيَ الْمَوْصُوفُ؛ وَلَا نَقُولُ: هِيَ غَيْرُهُ؛ لِأَنَّا لَا نَقُولُ: لَا هِيَ هُوَ؛ وَلَا هِيَ غَيْرُهُ فَإِنَّ لَفْظَ الْغَيْرِ فِيهِ إجْمَالٌ قَدْ يُرَادُ بِهِ الْمُبَايِنُ لِلشَّيْءِ أَوْ مَا قَارَنَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ؛ وَمَا قَارَبَهُ بِوُجُودِ أَوْ زَمَانٍ أَوْ مَكَانٍ؛ وَيُرَادُ بِالْغَيْرِ: أَنَّ مَا جَازَ الْعِلْمُ بِأَحَدِهِمَا مَعَ عَدَمِ الْعِلْمِ بِالْآخَرِ.

وَعَلَى الْأَوَّلِ : فَلَيْسَتْ الصِّفَةُ غَيْرَ الْمَوْصُوفِ وَلَا بَعْضُ الْجُمْلَةِ غَيْرَهَا.

وَعَلَى الثَّانِي : فَالصِّفَةُ غَيْرُ الْمَوْصُوفِ وَبَعْضُ الْجُمْلَةِ غَيْرُهَا.

فَامْتَنَعَ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ مِنْ إطْلَاقِ لَفْظِ الْغَيْرِ عَلَى الصِّفَةِ نَفْيًا أَوْ إثْبَاتًا؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ الْإِجْمَالِ وَالتَّلْبِيسِ؛ حَيْثُ صَارَ الجهمي يَقُولُ: الْقُرْآنُ هُوَ اللَّهُ أَوْ غَيْرُ اللَّهِ، فَتَارَةً يُعَارِضُونَهُ بِعِلْمِهِ فَيَقُولُونَ: عِلْمُ اللَّهِ هُوَ اللَّهُ أَوْ غَيْرُهُ؛ إنْ كَانَ مِمَّنْ يُثْبِتُ الْعِلْمَ؛ أَوْ لَا يُمْكِنُهُ نَفْيُهُ .

الشرح :

نعم أيها الكرام ، هذا من شؤم العدول عن الألفاظ الشرعية ، والتعبيرات الشرعية ، إلى تعبيرات محدثة ، فإنه إذا أحدث الناس ألفاظا ابتدعوها ، فإنه لا بد أن يلحق هذه الألفاظ المبتدَعة ، لوازم تحتاج إلى بيان وتفصيل ، فلهذا لم يكن السلف الأولون (الصحابة والتابعون) يعبرون بهذا التعبير ، لا يقولون : الصفات زائدة عن الذات ، أو يقولون : غيرها ، ولا : هي هي ، فلما خاض المتكلمون في هذا ، احتاج أهل السنة إلى البيان بعد الإجمال .

فقالت الأئمة : لا نقول : الصفة هي الموصوف ، ولا نقول : هي غيره ؛ لأنا لا نقول : لا هي هو ، ولا : هي غيره ، فإن لفظ الغير فيه إجمال ، قد يراد به المباين للشيء ، أو ما قارن أحدهما الآخر .. الخ

بمعنى : أن حقيقة الأمر أن الصفات تقوم في الذات ، وللتقريب :

نحن الآدميين ، كل واحد منا له ذات ، هذه الذات هي مجموع صفات ، فيقال : فلان مثلا طويل ، قوي ، أبيض، شجاع ، كذا كذا ، ويمكن أن نسرد عشرات الصفات ، لشخص واحد ، ولا يقال : إن هذه الصفات منفصلة إلى جواره ، بجانبه ، أو عن يمينه ، أو عن شماله ، أو أمامه ، أو خلفه .. الخ ، بل من المعلوم بمحض العقول أن الصفات تقوم في الذات .

فيتبين بهذا أن ما أحدثه المتأخرون من هذه العبارات ، إنما هو في الحقيقة كما قال ابن جرير الطبري : من الحماقات الحادثة ، وأنه ينبغي التفصيل والبيان ؛ لئلا يستطيل أحد على الحق بطائل .

نعم ، هذا مثال لما تثبته هذه الألفاظ المجملة من إشكالات ، فالجهمي والمعتزلي ، ينكرون أن يكون لله صفة الكلام ، ولذلك قالوا : القرآن مخلوق ، وقال أهل السنة : القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، فيستطيل الجهمي أو المعتزلي على مخالفيه ، فيقول : إذن ، على ذلك فالقرآن هو الله ، باعتبار أن الصفة هي الموصوف ، فيحرج محدثه ، ولكن يقال : بل القرآن كلام الله ، وكلامه صفته ، وصفته قائمة به ، فلا إلزام ، ولا إحراج كما أراد هذا أن يصنع .

ويقولون له أيضا على سبيل المقابلة : أنت الآن تقول : علم الله ، فهل علم الله هو الله ؟ فلا يحير جوابا ، هذا إذا كان يثبت العلم ، أما إذا كان ينفيه ، فإنه لا يمكنه نفيه ، لأن لازم ذلك أن يصف الله بالجهل ، تعالى الله عما يقولون .

وَتَارَةً يُحِلُّونَ الشُّبْهَةَ وَيُثْبِتُونَ خَطَأَ الْإِطْلَاقَيْنِ: النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ لِمَا فِيهِ مِنْ التَّلْبِيسِ بَلْ يَسْتَفْصِلُ السَّائِلُ فَيُقَالُ لَهُ: إنْ أَرَدْت بِالْغَيْرِ مَا يُبَاينُ الْمَوْصُوفَ فَالصِّفَةُ لَا تُبَاينُهُ؛ فَلَيْسَتْ غَيْرَهُ. وَإِنْ أَرَدْت بِالْغَيْرِ مَا يُمْكِنُ فَهْمُ الْمَوْصُوفِ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ فَهُوَ غَيْرُ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ.

الشرح :

الحمد لله ، هذا هو الفصل الأول من هذه الرسالة ، وهو يدور حول العلم ، والعلم المرغب به ، وتحقيق اليقين ، وجملة القول المتعلق بهذا الأمر : أن من نصح نفسه ، فعليه أن يتوجه بقلبه وقالبه ، إلى العلم بربه ومعبوده ، وألا يرتضي موردا ، ومصدرا غير الكتاب والسنة ، فإنه إن استقى من معين الكتاب والسنة ، استقى ماء نميرا عذبا فراتا ، وإن هو شرب من الروافد المختلطة ، التي اختلطت فيها الدلاء ، فسوف يشرب ماء مشوبا ، ويعود عليه ذلك بالضرر ، فالله الله أيها المؤمن ، أصلح حبة قلبك ، واجعل قلبك مستودعا للعلم بالله سبحانه وتعالى ، والعلم بشرعه ، تعش سعيدا حميدا ، وتلقى الله تعالى على خير ما تحب ، فإن الله تعالى عند ظن عبده به ، وظن العبد بربه هو ما يقوم بقلبه من مقتضى أسمائه وصفاته ، ومن أسلم عقلَه وقلبه لهؤلاء المتهوكين ، أبناء اليهود والنصارى ، والفلاسفة ، والهنادكة ، وغير ذلك من أمم الكفر ، فإنه في الحقيقة ، إنما يجني الشوك ، ويلحقه من الشبهات خلاف ما أراده من اليقين والرضا والطمأنينة ، وليس ثم شيء أعظم من كتاب الله عز وجل ، ومن سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، في بناء الإيمان ، فإذا أقبل العبد على هذين الأصلين ، سائلا الله تعالى العلم النافع ، المورث للخشية ، أثمر الله تعالى له ذلك ، وإن هو التفت إلى القيل والقال ، وأخلاط الرجال ، فإنه يضيع بين هذه المقالات ، ويصل إلى ما وصلوا إليه .

ولهذا رأينا المتكلمين ، يعبرون عن حسرتهم وندمهم ، أن اشتغلوا بعلم الكلام ، حتى قال أحدهم : لقد خضت البحر الخضم ، وتركت علوم أهل الإسلام ، ولم أستمع إلى ما نهوني عنه ، وهذا ، وهأنذا أموت على عقيدة أمي، أي : كل ما كتبت وسودت ، ذهب أدراج الرياح ، وأتمنى أن أموت على الفطرة الأصلية .

وآخر يقول :

نهاية إقدام العقول عقال *** وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا *** وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا *** سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمذاهب الفلسفية ، فلم أرها تشفي عليلا ، ولا تروي غليلا ، ووجد أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ في الإثبات {الرحمن على العرش استوى} ، أي : فأثبت الاستواء ، وأقرأ في النفي {ليس كمثله شيء} أي : سأنفي المماثلة والتكييف ، ومن جرب تجربتي عرف معرفتي ، انتهى كلامه .

لكن هل نحن بحاجة أيها الإخوة الكرام ، ويا أيتها الأخوات ، ومن بلغ ، أن نخوض هذه التجربة المرة ؟ لا والله ، قد عوفينا بحمد الله ، وأتانا بها نبينا صلى الله عليه وسلم ، بيضاء نقية ، فلا مُحْوج لهذا الخبط ، بل علينا أن نأخذه صافيا ، محلى من نبع الكتاب والسنة ، ولا نشتغل بغيرهما .

ثم إن الشيخ رحمه الله ، ذكر فصلا ، سوف نتجاوزه ، لكني أشير إليه إشارة .

وهو : أن الشيخ رحمه الله ، قارن بين منهجين :

- منهج أرباب الكلام والحروف .
- ومنهج أرباب العمل والصوت .

ماذا يعني هذان الاصطلاحان ؟ حينما يقول الشيخ : أرباب الكلام والحروف ، يقصد بهم : المتكلمين ، الذين يحكمون العقل ، وحينما يقول : أرباب العمل والصوت ، يقصد به الصوفية ، وذلك أن الناس انقسموا إلى طرفين ووسط :

- طرف يعظم العقل ويقدمه ، وهم : المعتزلة ، الذين يقال عنهم : العقلانيون ، يعظمون العقل ، ويسودونه .
- وطرف آخر ، يميلون إلى الخرافة ، والوجد ، والذوق والسكر ، والولَه ، والاصطلام ، وغير ذلك ، وهم الصوفية .

وإنما عبر عن المتكلمين بأنهم أهل الحروف ؛ لأنهم يعتمدون على المنطق ، الذي يُكتب بالحروف ، ويعبر عنه بالحرف .

وعبر عن الصوفية بالصوت ؛ لأنهم يميلون إلى السماع ، والأصوات المطربة وغير ذلك ، فيقال عنهم : أرباب العمل والصوت .

ذكر الشيخ رحمه الله كلاما ، لكن تكلم أن هذين الفريقين وقفا من العقل ، طرفي نقيض ، فالمعتزلة عظموا العقل، والخرافيون من الصوفيين ، هونوا العقل ، وذكر في صفحة 24 كلاما نفيسا ، نود أن نقرأه فقط في صفحة 24 .

فَصْلٌ :

وَلَمَّا أَعْرَضَ كَثِيرٌ مِنْ أَرْبَابِ الْكَلَامِ وَالْحُرُوفِ وَأَرْبَابِ الْعَمَلِ وَالصَّوْتِ عَنْ الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ: تَجِدُهُمْ فِي الْعَقْلِ عَلَى طَرِيقٍ كَثِيرٍ مِنْ الْمُتَكَلِّمَةِ يَجْعَلُونَ الْعَقْلَ وَحْدَهُ أَصْلَ عِلْمِهِمْ وَيُفْرِدُونَهُ وَيَجْعَلُونَ الْإِيمَانَ وَالْقُرْآنَ تَابِعَيْنِ لَهُ.

وَالْمَعْقُولَاتُ عِنْدَهُمْ هِيَ الْأُصُولُ الْكُلِّيَّةُ الْأَوَّلِيَّةُ الْمُسْتَغْنِيَةُ بِنَفْسِهَا عَنْ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ.

وَكَثِيرٌ مِنْ الْمُتَصَوِّفَةِ يَذُمُّونَ الْعَقْلَ وَيَعِيبُونَهُ وَيَرَوْنَ أَنَّ الْأَحْوَالَ الْعَالِيَةَ وَالْمَقَامَاتِ الرَّفِيعَةَ لَا تَحْصُلُ إلَّا مَعَ عَدَمِهِ وَيُقِرُّونَ مِنْ الْأُمُورِ بِمَا يُكَذِّبُ بِهِ صَرِيحُ الْعَقْلِ. وَيَمْدَحُونَ السُّكْرَ وَالْجُنُونَ وَالْوَلَهَ وَأُمُورًا مِنْ الْمَعَارِفِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي لَا تَكُونُ إلَّا مَعَ زَوَالِ الْعَقْلِ وَالتَّمْيِيزِ كَمَا يُصَدِّقُونَ بِأُمُورِ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ الصَّرِيحِ بُطْلَانُهَا مِمَّنْ لَمْ يُعْلَمْ صِدْقُهُ وَكِلَا الطَّرَفَيْنِ مَذْمُومٌ .

بَلْ الْعَقْلُ شَرْطٌ فِي مَعْرِفَةِ الْعُلُومِ وَكَمَالِ وَصَلَاحِ الْأَعْمَالِ وَبِهِ يَكْمُلُ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ؛ لَكِنَّهُ لَيْسَ مُسْتَقِلًّا بِذَلِكَ؛ بَلْ هُوَ غَرِيزَةٌ فِي النَّفْسِ وَقُوَّةٌ فِيهَا بِمَنْزِلَةِ قُوَّةِ الْبَصَرِ الَّتِي فِي الْعَيْنِ ؛ فَإِنْ اتَّصَلَ بِهِ نُورُ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ كَانَ كَنُورِ الْعَيْنِ إذَا اتَّصَلَ بِهِ نُورُ الشَّمْسِ وَالنَّارِ.

وَإِنْ انْفَرَدَ بِنَفْسِهِ لَمْ يُبْصِرْ الْأُمُورَ الَّتِي يَعْجِزُ وَحْدَهُ عَنْ دَرْكِهَا وَإِنْ عُزِلَ بِالْكُلِّيَّةِ: كَانَتْ الْأَقْوَالُ وَالْأَفْعَالُ مَعَ عَدَمِهِ: أُمُورًا حَيَوَانِيَّةً قَدْ يَكُونُ فِيهَا مَحَبَّةٌ وَوَجْدٌ وَذَوْقٌ كَمَا قَدْ يَحْصُلُ لِلْبَهِيمَةِ.

فَالْأَحْوَالُ الْحَاصِلَةُ مَعَ عَدَمِ الْعَقْلِ نَاقِصَةٌ وَالْأَقْوَالُ الْمُخَالِفَةُ لِلْعَقْلِ بَاطِلَةٌ.

وَالرُّسُلُ جَاءَتْ بِمَا يَعْجِزُ الْعَقْلُ عَنْ دَرْكِهِ. لَمْ تَأْتِ بِمَا يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ امْتِنَاعُهُ .

الشرح :

نعم ، هذه القطعة كلام نفيس جيد ، في بيان منزلة العقل ووظيفته ، فالعقل شرط في معرفة العلوم ، وكمال وصلاح الأعمال ، ولهذا تجدون أن شرط العقل في جميع العبادات ، من شروط وجوب الصلاة ، والصوم ، والحج دائما نقول العقل ، ومن سلب العقل ، فليس من أهل التكليف ، فهذا العقل آلة ، أودعها الله تعالى الإنسان ، ليتمكن بها من الإدراك ، لكن العقل لا بد أن يستنير بنور النبوة ، حتى يُنتفع به ، وإلا صار أداؤه ناقصا ، ولأضرب لكم مثالا :

هذه العين نبصر بها الأشياء ، لو أننا أطفأنا أنوار هذا المسجد ، في هذه الليلة ، وقام أحدنا ، هل ينتفع بعينه ، ربما تعثر بهذا الجدار ، أو بذاك الكرسي ، أو أصاب عمودا من الأعمدة ، مع أنه يملك عينين ، وحينما يضيء المصباح ينتفع بعينيه ، لأن النور يقع عليها ، فكذلك العقل ، هذا العقل الذي أعطانا الله إياه ، إن استنار بنور الوحي ،

أنتفع منه صاحبه ، وأبصر به الأشياء على حقائقها ، وإن هو استقل به ، وقطع عنه النور الإلهي ، فإنه قد يصيب ، وقد يخطئ ، قد يرتطم بشيء ، وقد ينفذ أخرى .

ولهذا قال الشيخ : "والرسل جاءت بما يعجز العقل دركه ، لم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه" .

مراده بذلك : أن الرسل قد تأتي بأمور غيبية ، العقل يعجز أن يصل إليها ، لكنه لا يقول : هي ممتنعة ، فرق بين أن يقول العقل عن شيء من الأشياء : ممتنع ، مستحيل ، هذا لا يمكن أن تأتي به الرسل بحمد الله ؛ لأن الله تعالى له الخلق والأمر ، الأمر وحيه ، والعقل خلقه ، فلا يمكن أن يتعارضا وهما من عند الله ، لكن قد تأتي النصوص ، بما يعجز العقل عن دركه ، لكنه لا يمتنع منه ، ولهذا قال في بعض كلامه رحمه الله "النصوص محارات العقول ، لا محالات العقول" أي : أن العقول قد تتحير في معرفة كيفياتها ، وكيف تحصل ، لا تدرك الكيفيات ، لكنها لا تتخيلها ، ولا تقول : مستحيل .

هذا ما تضمنه هذا الفصل ، ثم إنه أيضا ذكر فصلا متعلقا بالعمل والطاعة ، وأيضا نتجاوزه ، لننتقل بعد ذلك ، إلى الفصل المتعلق بحديث الافتراق ؛ لتضمنه عددا كثيرا من الفوائد ، فننتقل إلى صفحة 36 حفاظا على الوقت .

لَكِنْ الْمُسْرِفُونَ فِيهِ قَضَوْا بِوُجُوبِ أَشْيَاءَ وَجَوَازِهَا وَامْتِنَاعِهَا لِحُجَجِ عَقْلِيَّةٍ بِزَعْمِهِمْ اعْتَقَدُوهَا حَقًّا وَهِيَ بَاطِلٌ وَعَارَضُوا بِهَا النُّبُوَّاتِ وَمَا جَاءَتْ بِهِ وَالْمُعْرِضُونَ عَنْهُ صَدَّقُوا بِأَشْيَاءَ بَاطِلَةٍ وَدَخَلُوا فِي أَحْوَالٍ وَأَعْمَالٍ فَاسِدَةٍ وَخَرَجُوا عَنْ التَّمْيِيزِ الَّذِي فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَنِي آدَمَ عَلَى غَيْرِهِمْ.

وَقَدْ يَقْتَرِبُ مِنْ كُلٍّ مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ بَعْضُ أَهْلِ الْحَدِيثِ تَارَةً بِعَزْلِ الْعَقْلِ عَنْ مَحَلِّ وِلَايَتِهِ وَتَارَةً بِمُعَارَضَةِ السُّنَنِ بِهِ .

فَهَذَا الِانْحِرَافُ الَّذِي بَيْنَ الْحَرْفِيَّةِ وَالصَّوْتِيَّةِ فِي الْعَقْلِ التَّمْيِيزِيِّ بِمَنْزِلَةِ الِانْحِرَافِ الَّذِي بَيْنَهُمْ فِي الْوَجْدِ الْقَلْبِيِّ فَإِنَّ الصَّوْتِيَّةَ صَدَّقُوا وَعَظَّمُوهُ وَأَسْرَفُوا فِيهِ حَتَّى جَعَلُوهُ هُوَ الْمِيزَانَ وَهُوَ الْغَايَةَ كَمَا يَفْعَلُ أُولَئِكَ فِي الْعَقْلِ وَالْحَرْفِيَّةُ أَعْرَضَتْ عَنْ ذَلِكَ وَطَعَنَتْ فِيهِ وَلَمْ تَعُدَّهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ .

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْحِرَفِ لَمَّا كَانَ مَطْلُوبُهُمْ الْعِلْمَ وَبَابُهُ هُوَ الْعَقْلُ وَأَهْلَ الصَّوْتِ لَمَّا كَانَ مَطْلُوبُهُمْ الْعَمَلَ وَبَابُهُ الْحُبُّ: صَارَ كُلُّ فَرِيقٍ يُعَظِّمُ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ وَيَذُمُّ الْآخَرَ مَعَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ: عَقْلٍ عِلْمِيٍّ. وَعَمَلٍ ذِهْنِيٍّ وَحُبٍّ. تَمْيِيزٍ وَحَرَكَةٍ. قَالَ وَحَالُ. حَرْفٍ وَصَوْتٍ. وَكِلَاهُمَا إذَا كَانَ مَوْزُونًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَانَ هُوَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ – قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ –

فَصْلٌ:

وَإِذَا كَانَتْ الشَّهَادَتَانِ هِيَ أَصْلَ الدِّينِ، وَفَرْعَهُ، وَسَائِرُ دَعَائِمِهِ وَشُعَبِهِ دَاخِلَةٌ فِيهِمَا، فَالْعِبَادَةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ النساء: ٦٩ .

وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْمَشْرُوعَةِ فِي خُطْبَةِ الْحَاجَةِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ الأحزاب: ٧٠ – ٧١ .

وَفِي الْخُطْبَةِ: {مَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ إلَّا نَفْسَهُ وَلَا يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا}(1) وَقَالَ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢ ﴾ النور: ٥٢ وَقَالَ ﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤ ﴾ النساء14.13

وَ كَذَلِكَ عَلَّقَ الْأُمُورَ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ كَقَوْلِهِ:﴿ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ التوبة: ٢٤ وَبِرِضَا اللَّهِ وَرَسُولِهِ كَقَوْلِهِ:﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ ﴾ التوبة: ٦٢ وَتَحْكِيمُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ النور: ٤٨ وَقَوْلِهِ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾ النساء: ٦١ وَأَمَرَ عِنْدَ التَّنَازُعِ بِالرَّدِّ إلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ فَقَالَ: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ النساء: ٥٩ وَجَعَلَ الْمَغَانِمَ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَقَالَ: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ ﴾ الأنفال: ١ وَنَظَائِرُ هَذَا مُتَعَدِّدَةٌ.

فَتَعْلِيقُ الْأُمُورِ مِنْ الْمَحَبَّةِ والبغضة وَالْمُوَالَاةِ وَالْمُعَادَاةِ وَالنُّصْرَةِ وَالْخِذْلَانِ وَالْمُوَافَقَةِ وَالْمُخَالَفَةِ وَالرِّضَا وَالْغَضَبِ وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ؛ بِمَا يُخَالِفُ هَذِهِ الْأُصُولَ الْمُنَزَّلَةَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مِمَّا هُوَ " أَخَصُّ مِنْهَا " أَوْ " أَعَمُّ مِنْهَا " أَوْ " أَعَمُّ مِنْ وَجْهٍ وَأَخَصُّ مِنْ وَجْهٍ"

فَالْأَعَمُّ: مَا عَلَيْهِ الْمُتَفَلْسِفَةُ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ – مِنْ ضَلَالِ الْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ وَالْمَمَالِكِ الْمُؤَسَّسَةِ عَلَى ذَلِكَ كَمَلِكِ التُّرْكِ وَغَيْرِهِمْ. – فِي تَسْوِيغِ التَّدَيُّنِ بِغَيْرِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ عَظَّمَ مُحَمَّدًا وَجَعَلَ دِينَهُ أَفْضَلَ الْأَدْيَانِ وَكَذَلِكَ مَنْ سَوَّغَ النَّجَاةَ وَالسَّعَادَةَ بَعْدَ مَبْعَثِهِ بِغَيْرِ شَرِيعَتِهِ.

وَ " الْأَعَمُّ مِنْ وَجْهٍ الْأَخَصُّ مِنْ وَجْهٍ ": مِثْلُ الْأَنْسَابِ. وَالْقَبَائِلِ؛ وَالْأَجْنَاسِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ وَالرُّومِيَّةِ وَالتُّرْكِيَّةِ أَوْ الْأَمْصَارِ وَالْبِلَادِ . وَ " الْأَخَصُّ مُطْلَقًا ": الِانْتِسَابُ إلَى جِنْسٍ مُعَيَّنٍ مِنْ

أَجْنَاسِ بَعْضِ شَرَائِعِ الدِّينِ كَالتَّجَنُّدِ لِلْمُجَاهِدِينَ وَالْفِقْهِ لِلْعُلَمَاءِ وَالْفَقْرِ وَالتَّصَوُّفِ لِلْعِبَادِ. أَوْ الِانْتِسَابِ إلَى بَعْضِ فِرَقِ هَذِهِ الطَّوَائِفِ كَإِمَامٍ مُعَيَّنٍ أَوْ شَيْخٍ أَوْ مَلِكٍ أَوْ مُتَكَلِّمٍ مِنْ رُءُوسِ الْمُتَكَلِّمِينَ أَوْ مَقَالَةٍ أَوْ فِعْلٍ تَتَمَيَّزُ بِهِ طَائِفَةٌ أَوْ شِعَارُ هَذِهِ الْفِرَقِ مِنْ اللِّبَاسِ مِنْ عَمَائِمَ أَوْ غَيْرِهَا كَمَا يَتَعَصَّبُ قَوْمٌ لِلْخِرْقَةِ أَوْ اللُّبْسَةِ يَعْنُونَ الْخِرْقَةَ الشَّامِلَةَ لِلْفُقَهَاءِ وَالْفُقَرَاءِ أَوْ الْمُخْتَصَّةِ بِأَحَدِ هَذَيْنِ أَوْ بَعْضِ طَوَائِفِ أَحَدِ هَؤُلَاءِ أَوْ لِبَاسِ التَّجَنُّدِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ. كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ الْمُفَرِّقَةِ بَيْنَ الْأُمَّةِ؛ وَأَهْلُهَا خَارِجُونَ عَنْ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ دَاخِلُونَ فِي الْبِدَعِ وَالْفُرْقَةِ؛ بَلْ دِينُ اللَّهِ تَعَالَى: أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْمُطَاعُ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ الْمَتْبُوعُ فِي مَحَبَّتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ وَرِضَاهُ وَسَخَطِهِ وَعَطَائِهِ وَمَنْعِهِ وَمُوَالَاتِهِ وَمُعَادَاتِهِ وَنَصْرِهِ وَ خِذْلَانِهِ .

وَيُعْطِي كُلَّ شَخْصٍ أَوْ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَالَمِ مِنْ الْحُقُوقِ: مَا أَعْطَاهُمْ إيَّاهُ الرَّسُولُ. فَالْمُقَرَّبُ مَنْ قَرَّبَهُ وَالْمُقْصَى مَنْ أَقْصَاهُ وَالْمُتَوَسِّطُ مَنْ وَسَّطَهُ وَيُحِبُّ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ: أَعْيَانَهَا وَصِفَاتِهَا مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْهَا وَيَكْرَهُ مِنْهَا مَا كَرِهَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْهَا وَيَتْرُكُ مِنْهَا – لَا مَحْبُوبًا وَلَا مَكْرُوهًا – مَا تَرَكَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ كَذَلِكَ – لَا مَحْبُوبًا وَلَا مَكْرُوهًا ، وَيُؤْمَرُ مِنْهَا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَيَنْهَى عَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ وَ يُبَاحُ مِنْهَا مَا أَبَاحَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَيُعْفَى عَمَّا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ وَيُفَضِّلُ مِنْهَا مَا فَضَّلَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَيُقَدِّمُ مَا قَدَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَيُؤَخِّرُ مَا أَخَّرَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَيَرُدُّ مَا تُنُوزِعَ مِنْهَا إلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَمَا وَضَحَ اُتُّبِعَ وَمَا اشْتَبَهَ بُيِّنَ فِيهِ .

وَمَا كَانَ مِنْهَا مِنْ الاجتهاديات الْمُتَنَازَعِ فِيهَا الَّتِي أَقَرَّهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ كَاجْتِهَادِ الصَّحَابَةِ فِي تَأْخِيرِ الْعَصْرِ عَنْ وَقْتِهَا يَوْمَ قُرَيْظَةَ أَوْ فِعْلِهَا فِي وَقْتِهَا فَلَمْ يُعَنِّفْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاحِدَةً مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ وَكَمَا قَطَعَ بَعْضُهُمْ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَبَعْضُهُمْ لَمَّا يَقْطَعْ فَأَقَرَّ اللَّهُ الْأَمْرَيْنِ. وَكَمَا ذَكَرَ اللَّهُ عَنْ دَاوُد وَسُلَيْمَانَ: أَنَّهُمَا حَكَمَا فِي الْحَرْثِ فَفَهِمَ الْحُكُومَةَ أَحَدُهُمَا وَأَثْنَى عَلَى كُلٍّ مِنْهُمَا بِالْعِلْمِ وَالْحُكْمِ بِهِ. وَكَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {إذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ} (1) .

1- (متفق عليه) (البخاري 7352) (مسلم 1716) و أخرجه (أحمد 17774) و (الترمذي 1326) و (ابن حبان 5060) .

فَمَا وَسَّعَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وُسِّعَ وَمَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ عَفَا عَنْهُ. وَمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ إيجَابٍ، أَوْ تَحْرِيمٍ أَوْ اسْتِحْبَابٍ أَوْ إبَاحَةٍ أَوْ عَفْوٍ بَعْضِهِمْ لِبَعْضِ عَمَّا أَخْطَأَ فِيهِ وَإِقْرَارِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضِ فِيمَا اجْتَهَدُوا بِهِ فَهُوَ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَمَرَ بِالْجَمَاعَةِ وَنَهَى عَنْ الْفُرْقَةِ. وَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْأُمَّةَ لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ عَلَى مَا هُوَ مَسْطُورٌ فِي مَوَاضِعِهِ.

وَسُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَحْمَدُ ابْنُ تَيْمِيَّة – قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ –:

عَنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " تَفْتَرِقُ أُمَّتِي ثَلَاثَةً وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ". مَا الْفِرَقُ؟ وَمَا مُعْتَقَدُ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْ هَذِهِ الصُّنُوفِ؟

فَأَجَابَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ، الْحَدِيثُ صَحِيحٌ مَشْهُورٌ فِي السُّنَنِ وَالْمَسَانِدِ؛ كَسُنَنِ أَبِي دَاوُد وَالتِّرْمِذِي وَالنِّسَائِيِّ وَغَيْرِهِمْ وَلَفْظُهُ {افْتَرَقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إلَّا وَاحِدَةً وَافْتَرَقَتْ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إلَّا وَاحِدَةً وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إلَّا وَاحِدَةً} وَفِي لَفْظٍ {عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً} وَفِي رِوَايَةٍ {قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ؟ قَالَ: مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي} وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ {هِيَ الْجَمَاعَةُ يَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ}.وَلِهَذَا وَصَفَ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ بِأَنَّهَا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَهُمْ الْجُمْهُورُ الْأَكْبَرُ وَالسَّوَادُ الْأَعْظَمُ.

الشرح :

الحمد لله رب العالمين ، صورة السؤال تضمنت مسألتين :

- السؤال عن حديث الافتراق .
- والسؤال عن عقيدة كل فرقة .

فابتدأ الشيخ رحمه الله بالحمدلة ، وثنى بالحكم على الحديث ، فقرر رحمه الله ، بأن حديث الافتراق صحيح مشهور ، وهذا الذي قرره من تصحيح الحديث ، قد قرره جماعة من المتقدمين والمتأخرين من أهل الحديث ، وصححه جماعة من المتقدمين والمتأخرين ، بما لا يبقي في النفس شكا من صحته ، كما أن الأحاديث الأخر تؤدي نفس المعنى ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم ، في الحديث المتفق عليه [لتتبعن سنن من كان قبلكم ، حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن] .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، في كتابه العظيم "اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم " عددا كثيرا من النصوص القرآنية ، والنبوية ، والآثار عن الصحابة والتابعين ، في تأييد هذا المعنى ، وأن هذه الأمة جارية على سنن من كان قبلها من الافتراق ، هذا حق لا شك فيه ، ويحاول بعض المعاصرين تضعيف هذا الحديث ، بدواع عاطفية ، حيث يسعون إلى التجميع ، واللملمة ، وإدخال جميع الفرق المبتدعة ، تحت مظلة الإسلام ، فدوافعهم دوافع عاطفية ، بحتة ، لكنهم يريدون أن يدخلوا تحت مسمى الإسلام كل بدعة ، ويغضون الطرف ، ولأجل ذا ، يضعفون هذا الحديث ؛ لأن الحديث يقول [كلها في النار إلا واحدة] مع أن الحديث لا يدل على أن كل واحد من أفراد تلك الفرق كافر ، في النار ، هذا لم يقل به أحد من

أهل العلم المعتبرين ، لكن هذه المقالة ، مقالة باطلة ، مقالة بدعية ، فحمل هذا الدافع العاطفي ، بعض المعاصرين ، على تضعيف الحديث ورده ، رغبة منه في التجميع ، والتكثير ، و لم يصل إلى مبتغاه ، فإن أهل البدع أنفسهم ، هم الذين يتبرءون من أهل السنة ، ولا يريدون أن ينضووا تحت لوائهم ، فأُتي من حيث لم يحتسب ، ولذلك نعتصم بالحق الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، ودلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، من أن الافتراق سنة ربانية جارية ، وأن الحق واحد لا يتعدد ، كل هذه سبيل ، السبيل واحد ، {وأن هذا صراطي} الصراط واحد {مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل} فعليكم أهل السنة ، أن تعضوا على دينكم بالنواجذ ، وأن تتمسكوا به ، وأن تعلموا أن الحق والهدى ، هو فيما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان ، وأنه لا يوجد عدة طرق تؤدي إلى الله ، كما يقول بعضهم ، لا ، الطريق واحد ، وعلينا أن ندعو الناس إليه ، نحن دعاة اجتماع على الحق ، لا دعاة تجميع ، فعلينا أن ندعو أهل البدع ، ومن شذ عن الصراط ، أن يرجع إلى الأصل ، لا أن نعدد الشعب والسبل ، ونقول : كل يلزم ما هو عليه ، ويبقى على ما هو عليه ، ما بهذا أمرنا ، فلذلك الحاجة إلى فقه هذا الحديث مهمة ، وكبيرة ، فقال الشيخ رحمه الله بعد ذلك :

وَأَمَّا الْفِرَقُ الْبَاقِيَةُ فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الشُّذُوذِ وَالتَّفَرُّقِ وَالْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ وَلَا تَبْلُغُ الْفِرْقَةُ مِنْ هَؤُلَاءِ قَرِيبًا مِنْ مَبْلَغِ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ فَضْلًا عَنْ أَنْ تَكُونَ بِقَدْرِهَا بَلْ قَدْ تَكُونُ الْفِرْقَةُ مِنْهَا فِي غَايَةِ الْقِلَّةِ. وَشِعَارُ هَذِهِ الْفِرَقِ مُفَارَقَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ. فَمَنْ قَالَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ كَانَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ .

الشرح :

نعم ، هذا احتراز جيد ، فإنه قد يقع في نفس الإنسان أنه إذا كانوا اثنتين وسبعين فرقة ، كلها على الضلالة والبدعة ، وفرقة واحدة على الحق ، وهم أهل السنة والجماعة ، معنى ذلك : أن أهل السنة والجماعة ، نسبتهم ضئيلة جدا ، فبين الشيخ رحمه الله ، أن هذا التعدد ، لا يعني أن كل فرقة بحجم أهل السنة والجماعة ، بل إن منها فرقا ضئيلة ، كما قال : قد تكون الفرقة منها في غاية القلة ، فالسواد الأعظم ، والجمهور الأعظم ، هم أهل السنة والجماعة بحمد الله ، ويوجد أحيانا فرق قليلة ، ربما بعضها قد انقرض ، وبعضها يظهر ، ثم يضمُر ، فالعبرة بما عليه أهل السنة والجماعة ، وجمهور المسلمين تبع لهم .

هذا ضابط بين ، إذا قيل : من هم أهل السنة والجماعة ؟ نقول : من هي الفرقة الناجية ؟ نقول بملء أفواهنا : من قال بالكتاب والسنة والإجماع ، فهو من أهل السنة والجماعة ، ومن تجاوز الكتاب والسنة والإجماع فهو من أهل الفُرقة والشذوذ والبدعة ، انتهى ، هذا كلام بين ، يطابق قول النبي صلى الله عليه وسلم [هم من كان على مثل ما أنا عليه اليومَ وأصحابي ، فبذلك يتبين الحد الفاصل ، بين أهل السنة ، وبين مخالفيهم .

وَأَمَّا تَعْيِينُ هَذِهِ الْفِرَقِ فَقَدْ صَنَّفَ النَّاسُ فِيهِمْ مُصَنَّفَاتٍ وَذَكَرُوهُمْ فِي كُتُبِ الْمَقَالَاتِ؛ لَكِنَّ الْجَزْمَ بِأَنَّ هَذِهِ الْفِرْقَةَ الْمَوْصُوفَةَ (؟؟؟) [1]هِيَ إحْدَى الثِّنْتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ دَلِيلٍ فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْقَوْلَ بِلَا عِلْمٍ عُمُومًا؛ وَحَرَّمَ الْقَوْلَ عَلَيْهِ بِلَا عِلْمٍ خُصُوصًا؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الأعراف: 33وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ البقرة: ١٦٨ - ١٦٩

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ ﴾ الإسراء: ٣٦ .

الشرح :

نعم ، هذه قطعة مفيدة ، وهو : أن تعيين هذه الفرق ، يصيب الناس فيه ويخطئون ، فإنه لا شك أن الأمر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، أن هذه الأمة ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة ، لكن تعيين هذه الفرق ، لا يجوز الجزم به إلا دليل بين صريح ، فلا يحل لأحد أن يقطع بأن هذه الفرقة ، إحدى الثنتين وسبعين الضالة ، إلا ببينة وبرهان ودليل ؛ لأن الله تعالى حرم القول عليه بغير علم ، {وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} ، {ولا تقف ما ليس لك به علم} إلى غير ذلك من الآيات الدالة على التوقي ، والتحفظ من إطلاق القول على عواهنه بلا دليل ، فلا بد من البينة على أن هذه الفرقة ، قد خالفت الكتاب والسنة ، لكي نضعها في قائمة الثنتين وسبعين فرقة .

والعلماء قديما قد صنفوا في الفرق ، فممن صنف في الفرق : عبد القاهر البغدادي رحمه الله ، في كتابه "الفَرْق بين الفِرق" .

وممن صنف فيه : محمد بن عبد الكريم ، الشهرستاني ، في كتابه "الملل والنحل " .

وممن صنف أيضا : ابن حزم ، رحمه الله ، "الفِصل في الملل والأهواء والنحل " .

وبعضهم نحى منحى ، وهو : أن يستجمع الثنتين والسبعين فرقة ، وهذا أمر ليس بلازم ؛ لأن ظهور هذه الفرق ، لا يلزم أن يكون قد اكتمل زمن ذلك المؤلف أو غيره ، قد يكون من الفرق ما يظهر مؤخرا ، والمقصود بهذه الفرق أن يتميز بعضها عن بعض بميزة ظاهرة .

فتجد أحيانا في بعض كتب الفرق ، أنهم يعدون مثلا من فرق الشيعة ، فرقة ما تختلف عن الفرقة الأخرى إلا لاختلاف غير مؤثر

---

(1) قال الشيخ ابن قاسم : كلمة لم تظهر

مثلا في بعض الكتب يقول : ومن فرق الشيعة فرقة ، يقال لها : الغرابية ، ومن فرقهم فرقة يقال لها : الذبابية ، طيب ما الفرق ؟ يقول : الغرابية هم الذين يقولون : إن عليا أشبه بمحمد من الغراب بالغراب ، والذبابية هم الذين يقولون : إنه أشبه به من الذباب بالذباب ، هذا لا يستوجب أن تكون هذه فرقة ، وهذه فرقة ، من الثنتين وسبعين فرقة .

لكن يقال عنهم : الشيعة بمجموعهم فرقة ، يقال عن المرجئة بمجموعهم : فرقة ، والقدرية بمجموعهم فرقة ، ولا يلزم أن يستكمل مصنف معين ، جميع هذه الفرق في فترة زمنية ، فلربما ظهر فيما بعد فرق أخرى .

لكن الخطر كل الخطر ، هو : أن يُدخل في هذه الفرق الضالة ما ليس منها ، فلا يجوز التعيين إلا بدليل

وَأَيْضًا فَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يُخْبِرُ عَنْ هَذِهِ الْفِرَقِ بِحُكْمِ الظَّنِّ وَالْهَوَى فَيَجْعَلُ طَائِفَتَهُ وَالْمُنْتَسِبَةَ إلَى مَتْبُوعِهِ الْمُوَالِيَةَ لَهُ هُمْ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ وَيَجْعَلُ مَنْ خَالَفَهَا أَهْلَ الْبِدَعِ وَهَذَا ضَلَالٌ مُبِينٌ. فَإِنَّ أَهْلَ الْحَقِّ وَالسُّنَّةِ لَا يَكُونُ مَتْبُوعُهُمْ إلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى إنْ هُوَ إلَّا وَحْيٌ يُوحَى فَهُوَ الَّذِي يَجِبُ تَصْدِيقُهُ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرَ؛ وَطَاعَتُهُ فِي كُلِّ مَا أَمَرَ وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةُ لِغَيْرِهِ مِنْ الْأَئِمَّةِ بَلْ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ النَّاسِ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إلَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَمَنْ جَعَلَ شَخْصًا مِنْ الْأَشْخَاصِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَحَبَّهُ وَوَافَقَهُ كَانَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَمَنْ خَالَفَهُ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعَةِ وَالْفُرْقَةِ – كَمَا يُوجَدُ ذَلِكَ فِي الطَّوَائِفِ مِنْ اتِّبَاعِ أَئِمَّةٍ فِي الْكَلَامِ فِي الدِّينِ وَغَيْرِ ذَلِكَ – كَانَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ وَالتَّفَرُّقِ.

الشرح :

نعم ، أشار الشيخ رحمه الله ، إلى ما وقع فيه بعض الناس ، من المفاصلة ، وامتحان الناس بالأشخاص ، فإنه لا يجوز أن يُنتحل مذهب دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوالى ويعادى عليه ، ولا أن يُنصب شخص يوالى ويعادى عليه ، فإن الأمة بأجمعها مأمورة باتباع محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وليس لأحد أن يقول : من كان على طريقتنا ، ومذهبنا ، فهو من أهل السنة والجماعة ، ومن ليس كذلك ، فليس منهم ، لا يجوز ذلك ، وقد وقع هذا لبعض الطرق الصوفية ، فيدعون أنهم هم ، ومن أتى بأورادهم ، ولبس خرقتهم ، وتزيا بزيهم ، ولزم أورادهم ، أنه من أهل السنة والجماعة ، وما لا فلا .

بل قد يوجد من أتباع المذاهب الفقهية ، من يرى أن الحق في أصحابه ، ومن خالفه ، فهو خارج النطاق ، حتى قال بعضهم : كل نص يخالف ما قاله الأصحاب ، فهو إما منسوخ ، أو مؤول ، عياذا بالله ، أي جعل نصوص الأصحاب مقدمة على نصوص الوحيين ، واعتبر أن كل نص من كتاب أو سنة يخالف اجتهادات أصحاب مذهبه ، أن ذلك ينبغي أن يعامَل ، إما بأنه منسوخ ، أو مؤول ، فجعل المرجع مقالة الأصحاب ، وهذا خطير ، وقدح في شهادة أن محمدا رسول الله ، فيجب الحذر من ذلك ، وألا يوالى ولا يعادى إلا على ما جعله الله سبحانه وتعالى ، معيارا لذلك .

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِأَنْ تَكُونَ هِيَ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ؛ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ مَتْبُوعٌ يَتَعَصَّبُونَ لَهُ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُم أَعْلَمُ النَّاسِ بِأَقْوَالِهِ وَأَحْوَالِهِ وَأَعْظَمُهُمْ تَمْيِيزًا بَيْنَ صَحِيحِهَا وَسَقِيمِهَا وَأَئِمَّتُهُمْ فُقَهَاءُ فِيهَا وَأَهْلُ مَعْرِفَةٍ بِمَعَانِيهَا وَاتِّبَاعًا لَهَا: تَصْدِيقًا وَعَمَلًا وَحُبًّا وَمُوَالَاةً لِمَنْ وَالَاهَا وَمُعَادَاةً لِمَنْ عَادَاهَا الَّذِينَ يَرْوُونَ الْمَقَالَاتِ الْمُجْمَلَةَ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ؛ فَلَا يُنَصِّبُونَ مَقَالَةً وَيَجْعَلُونَهَا مِنْ أُصُولِ دِينِهِمْ وَجُمَلِ كَلَامِهِمْ إنْ لَمْ تَكُنْ ثَابِتَةً فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ بَلْ يَجْعَلُونَ مَا بُعِثَ بِهِ الرَّسُولُ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي يَعْتَقِدُونَهُ وَيَعْتَمِدُونَهُ.

الشرح :

الحمد لله ، لا شك أن أسعد الناس باسم الفرقة الناجية ، والطائفة المنصورة ، هم أهل السنة والجماعة ؛ لأنهم اعتصموا بالوحيين ، وتعصبوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقط ، وداروا حيث دار الحق ، فلا يلتفتون للأشخاص ، والذوات والأقاليم والقبائل والأنساب والمذاهب وغير ذلك .

ولهذا كانوا – أهل السنة والجماعة – هم مصابيح الدجى ، وفيهم العلماء المجددون ، والفقهاء المتبوعون ، فمن تأمل تاريخ هذه الأمة بأكمله ، بحمد الله ، وجد أن الأسماء اللامعة ، والمراجع العليا ، التي يأوي إليها الناس ، وينقلون عنها ، هم أهل السنة والجماعة ، في جميع الفنون ، في التفسير ، وفي الحديث ، وفي الأصول ، وفي الفقه ، وفي كل شيء ، وإنما وقع الانحراف بعد القرون الثلاثة الفاضلة ، ووجد من تأثر وتلطخ بشيء من البدع ، لكن الذين عليهم المعول ، وتطبق عليهم الأمة ، هم الأئمة الأعلام ، الشافعي ، وأحمد ، وأبو حنيفة ، ومالك ، وسفيان الثوري ، وابن عيينة ، والأوزاعي ، والشعبي ، وغيرهم كثير ، ولله الحمد ، من أهل الفقه والحديث ، فهم أهل السنة والجماعة ، وهم السواد الأعظم .

وَمَا تَنَازَعَ فِيهِ النَّاسُ مِنْ مَسَائِلِ الصِّفَاتِ وَالْقَدَرِ وَالْوَعِيدِ وَالْأَسْمَاءِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ يَرُدُّونَهُ إلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَيُفَسِّرُونَ الْأَلْفَاظَ الْمُجْمَلَةَ الَّتِي تَنَازَعَ فِيهَا أَهْلُ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ؛ فَمَا كَانَ مِنْ مَعَانِيهَا مُوَافِقًا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَثْبَتُوهُ؛ وَمَا كَانَ مِنْهَا مُخَالِفًا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَبْطَلُوهُ؛ وَلَا يَتَّبِعُونَ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ فَإِنَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ جَهْلٌ وَاتِّبَاعَ هَوَى النَّفْسِ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ ظُلْمٌ.

الشرح :

إي والله ، أهل السنة يعتصمون بالكتاب والسنة ، ولهذا كان الإمام أحمد رحمه الله ، حينما كان في مجلس المعتصم ، والواثق ، ثم يأمرونه أن يوافق المعتزلة في القول بخلق القرآن ، كان يقول : يا أمير المؤمنين ، ائتوني بشيء من كتاب الله وسنة رسوله ، أقول به ، فينقطعون ، ما يحيرون جوابا ، لأنهم إنما أتوا ببنات أفكارهم ، وترهات عقولهم ، فينقطعون ، ويحجهم بهذه الحجة .

فيجب على طالب العلم أن يعول على هذا ، إذا جاء نهرُ الله ، بطل نهر معقِل ، إذ جاء الكتاب والسنة ، ماذا يبقى لقائل القول ؟ ولهذا قال العلماء : لا قياس في مقابلة النص ، فالنص عصمة .

وَجِمَاعُ الشَّرِّ الْجَهْلُ وَالظُّلْمُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٧٢ ، إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. وَذَكَرَ التَّوْبَةَ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ لَا بُدَّ لِكُلِّ إنْسَانٍ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ جَهْلٌ وَظُلْمٌ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ فَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ دَائِمًا يَتَبَيَّنُ لَهُ مِنْ الْحَقِّ مَا كَانَ جَاهِلًا بِهِ وَيَرْجِعُ عَنْ عَمَلٍ كَانَ ظَالِمًا فِيهِ. وَأَدْنَاهُ ظُلْمُهُ لِنَفْسِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ ﴾ البقرة: ٢٥٧ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ ﴾ الحديد: ٩

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ إبراهيم: ١ .

الشرح :

نعم ، أشار الشيخ رحمه الله ، إلى حقيقة بشرية ، دل عليها ناطق الكتاب ، وهو : أن الإنسان تعتوره آفتان : الجهل والظلم ، {إنه كان ظلوما جهولا} فلا سبيل للإنسان إلى التخلص من هاتين الآفتين ، إلا بأن يستهدي بالله [يا عبادي ، كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم] ويقول [اللهم قني شر نفسي] لما لقي النبي صلى الله عليه وسلم حصين بن معبد ، والد عمران بن حصين ، قال له : أسلم ، قال له : كم تعبد ؟ قال : سبعة ، ستة في الأرض وواحدا في السماء ، قال : من الذي تعده لرغبك ورَبك ؟ قال : الذي في السماء ، قال : فاعبده ودع ما سواه ، فإنك إن أسلمت علمتك كلمتين ، فمضى الحصين ، ثم من الله عليه بالإسلام ، فأسلم ، وعاد إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، يطلبه الموعد ، وهو بأبي وأمي ، بر صادق أمين ، قال : نعم ، قل : اللهم ألهمني رشدي ، وأعذني من شر نفسي .

فعلى العبد الناصح لنفسه ، أن يسأل الله تعالى العافية من هاتين الآفتين ، من الجهل الذي يوقعه في الضلالات ، ومن الظلم الذي يوقعه في العدوان [اللهم ألهمني رشدي ، وأعذني من شر نفسي] وذكر الآيات الدالة على هذا المعنى .

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَيْضًا أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الطَّوَائِفَ الْمُنْتَسِبَةَ إِلَى مَتْبُوعِينَ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَالْكَلَامِ: عَلَى دَرَجَاتٍ ، مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ قَدْ خَالَفَ السُّنَّةَ فِي أُصُولٍ عَظِيمَةٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إنَّمَا خَالَفَ السُّنَّةَ فِي أُمُورٍ دَقِيقَةٍ.

وَمَنْ يَكُونُ قَدْ رَدَّ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ الطَّوَائِفِ الَّذِينَ هُمْ أَبْعَدُ عَنْ السُّنَّةِ مِنْهُ؛ فَيَكُونُ مَحْمُودًا فِيمَا رَدَّهُ مِنْ الْبَاطِلِ وَقَالَهُ مِنْ الْحَقِّ؛ لَكِنْ يَكُونُ قَدْ جَاوَزَ الْعَدْلَ فِي رَدِّهِ بِحَيْثُ جَحَدَ بَعْضَ الْحَقِّ وَقَالَ بَعْضَ الْبَاطِلِ فَيَكُونُ قَدْ رَدَّ بِدْعَةً كَبِيرَةً بِبِدْعَةٍ أَخَفَّ مِنْهَا؛ وَرَدَّ بِالْبَاطِلِ بَاطِلًا بِبَاطِلٍ أَخَفَّ مِنْهُ وَهَذِهِ حَالُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَمِثْلُ هَؤُلَاءِ إذَا لَمْ يَجْعَلُوا مَا ابْتَدَعُوهُ قَوْلًا يُفَارِقُونَ بِهِ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ؛ يُوَالُونَ عَلَيْهِ وَيُعَادُونَ؛ كَانَ مِنْ نَوْعِ الْخَطَأِ. وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَغْفِرُ لِلْمُؤْمِنِينَ خَطَأَهُمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ.

وَلِهَذَا وَقَعَ فِي مِثْلِ هَذَا كَثِيرٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا: لَهُمْ مَقَالَاتٌ قَالُوهَا بِاجْتِهَادِ وَهِيَ تُخَالِفُ مَا ثَبَتَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ بِخِلَافِ مَنْ وَالَى مُوَافِقَهُ وَعَادَى مُخَالِفَهُ وَفَرَّقَ بَيْنَ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَكَفَّرَ وَفَسَّقَ مُخَالِفَهُ دُونَ مُوَافِقِهِ فِي مَسَائِلِ الْآرَاءِ وَالِاجْتِهَادَاتِ ؛ وَاسْتَحَلَّ قِتَالَ مُخَالِفِهِ دُونَ مُوَافِقِهِ فَهَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافَاتِ.

الشرح :

نعم ، هذا ملحظ جيد ؛ لأن من طلبة العلم ، يصاب بعمى الألوان كما يقال في لغة العصر ، فلا يميز بين أنواع الاختلافات ، ولا شك أن البدع درجات ، منها : بدع مغلظة ، ومنها بدع مخففة ، منها بدع مكفرة ، ومنها بدع مفسقة ، فلا يصح أن يحشر الإنسانُ جميع المخالفين في خندق واحد ، بل عليه أن يتبين درجاتهم ، فإن العدل والإنصاف من أصول أهل السنة والجماعة {إن الله يأمر بالعدل والإحسان} فهذا ملحظ مهم نبه عليه الشيخ .

من إنصافه رحمه الله ، وهذا معلوم في طريقة شيخ الإسلام ابن تيمية ، أنه يحفظ للناس حقوقهم ، فيرى أنه يمكن أن يقع من بعض المخالفين نوع صواب ، وأنه ربما ينطق بعضهم بحق ، فلا يسوغ أن يُخطّأ المخالف بإطلاق ، بل يقر على ما وافق فيه الحق ، ويُنكَر على ما خالف فيه الحق ، هذا أمر لا بد منه ؛ ولهذا قال الله {ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا} .

وقد ذكر شيخ الإسلام في بعض كلامه ، أن من أصناف الشيعة ، والمعتزلة ، من دخل في الإسلام على أيديهم ناس من الكفار ، فصار حالهم خيرا من أن يبقوا على كفرهم ، وإن كانوا قد التاثوا ببدعة ، لكن كونهم دخلوا في الإسلام على بدعة ، خير من أن يبقوا على الكفر الأصلي ، فلا بد من الإنصاف والعدل في تقويم الرجال ،

والمقالات ، والأفعال {ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا} فإن من الناس من يغض الطرف عن الخطأ ، بدعوى التوافق والاجتماع ، وغير ذلك ، ويسكت عن الباطل ، فيلتبس الأمر على الناس ، ومنهم من إذا رأى خطأ في مخالفه أقصاه ، ونابذه ، مع أن عنده شيئا من الحق .

فالطريق الصحيح هو : أن يُقر من أصاب على صوابه ، ويقال له : أحسنت ، ويُنكر على من أخطأ ، ويقال له : أسأت ، فبهذا يحصل الفرقان ، ويتميز الحق من الباطل .

نعم أشار الشيخ رحمه الله ، إلى أمر ممكن ، بل هو واقع ، يقع للإنسان بطبيعته البشرية ، وهو : أنه قد يزل ، قد يخطئ في مسألة من المسائل ، فهو إن لم يوال ويعاد عليها ، احتمل خطؤه ، واعتذر له ، وإن هو فارق وفاصل عليها ، فإنه يُذم بذلك ، وإلا فقد وقع لأعلام من المنتسبين إلى السنة هَنَات وزلات يسيرة ، عرفوا بها ، بأن فلانا قال : كذا ، وفلانا قال : كذا ، لكنها احتملت في جنب فضائلهم ومناقبهم ، وعدت من أخطائهم و :

... . كفى المرءَ نُبلاً أن تعد معايبه

ولأنهم لم يضيقوا واسعا ، ولم يستحلوا حق مخالفهم ، فلما لم يبدر منهم ذلك ، لم يخرجوا بذلك عن السنة ، ولم يُلحقوا بأهل التفرق والاختلاف ، فشتانَ بين صنف وصنف .

وسيذكر الآن من هم الحقيقون بوصف البدعة ، والتفرق والشذوذ فقال .

وَلِهَذَا كَانَ أَوَّلَ مَنْ فَارَقَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ " الْخَوَارِجُ " الْمَارِقُونَ. وَقَدْ صَحَّ الْحَدِيثُ فِي الْخَوَارِجِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عَشَرَةِ أَوْجُهٍ خَرَّجَهَا مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ؛ وَخَرَّجَ الْبُخَارِيُّ مِنْهَا غَيْرَ وَجْهٍ.(1) وَقَدْ قَاتَلَهُمْ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي قِتَالِهِمْ كَمَا اخْتَلَفُوا فِي قِتَالِ الْفِتْنَةِ يَوْمَ الْجَمَلِ وصفين إذْ كَانُوا فِي ذَلِكَ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ قَاتَلُوا مَعَ هَؤُلَاءِ؛ وَصِنْفٌ قَاتَلُوا مَعَ هَؤُلَاءِ؛ وَصِنْفٌ أَمْسَكُوا عَنْ الْقِتَالِ وَقَعَدُوا. وَجَاءَتْ النُّصُوصُ بِتَرْجِيحِ هَذِهِ الْحَالِ.

الشرح :

نبه الشيخ رحمه الله ، على أول بدعة وقعت في الإسلام ، وهي بدعة الخوارج ، حينما مرقت مارقة على حين فرقة من أمة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، كان بين الأمة خلاف سياسي، جرى بين علي ومعاوية ، أو بين علي وطلحة والزبير وعائشة ، رضوان الله عليهم أجمعين ، لكن ذلك الخلاف لم يكن يَمس الأصول العقَدية ، ومسائل الإيمان ، والتوحيد ، لا ، وإنما كان خلافا يتعلق بأمر سياسي ، يتعلق بالبيعة والحكم ، ونحو هذا ، فيما لا يخفى عليكم .

لكن أول بدعة في الدين وفي الاعتقاد ، كانت بدعة الخوارج ؛ إذ إن الخوارج كفروا مخالفيهم ، واستحلوا دماءهم ، في حوادث مشهورة ، ولما كان أمرهم ملتبسا ، بسبب اجتهادهم في العبادة ، نبه النبي صلى الله عليه وسلم ، عليهم أشد التنبيه ، ووصفهم بصفاتهم ، الخِلقية والخُلُقية ، حتى إنه كان يقول [حَلِيقِي الرؤوس] صفات خِلقية ، وحتى وصف بعضهم وصفا دقيقا ، قال [فيهم ذو الثُّدَيَّة ، على عضده مثل الحلمة ، تَدردر ، عليها شعرات] وصف دقيق ، لأن أمرهم قد يلتبس ، [تحقرون صلاتكم عند صلاتهم ، وصيامكم عند صيامهم ، يمرقون من الدين ، كما يمرق السهم من الرمية] فلما كان أمرهم ملتبسا ، صح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، عشرة أحاديث بأسانيدَ جياد، كما قال الإمام أحمد رحمه الله، هؤلاء هم الخوارج، أول بدعة ظهرت في الإسلام.

لم يختلف الصحابة في قتالهم ، فقد رغب النبي في قتالهم ، وقال [لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد وإرم] مع أن الصحابة قد اختلفوا في مسألة الفتنة ، في القتال الذي جرى بين علي ومعاوية ، وبين علي وطلحة والزبير ، وعائشة ، فكانوا كما قال الشيخ ، كانوا في ذلك ثلاثة أصناف :

- صنف قاتلوا مع هؤلاء .
- وصنف قاتلوا مع هؤلاء .

---

(1) (البخاري 3344 ، 3610 ، 3611 ، 4351 ، 3667 ، 5057 ، 5058 ، 6163 ، 6930 ، 6931 ، 6932 ، 6933 6934 ، 7432 ، 7562) (مسلم 1063/141 ، 1064/143 ، 1064/144 ، 1064/145 ، 1064/146، 1064/147 1064/148 ، 1066/154 ، 1066/156 ، 1066/157 ، 1066/159) .

– وصنف أمسكوا عن القتال . مثل : سعد بن أبي وقاص ، وأبي بكرة ، وغيرهم رضوان الله عليهم .

قال " وجاءت النصوص بترجيح هذه الحال" أي : الكف والإمساك عن القتال في زمن الفتنة .

ثم عاد إلى حديثه عن الخوارج فقال :

فَالْخَوَارِجُ لَمَّا فَارَقُوا جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَكَفَّرُوهُمْ وَاسْتَحَلُّوا قِتَالَهُمْ جَاءَتْ السُّنَّةُ بِمَا جَاءَ فِيهِمْ؛ كَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {يُحَقِّرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} (1) .

قَدْ كَانَ أَوَّلُهُمْ خَرَجَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا رَأَى قِسْمَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {قَالَ: يَا مُحَمَّدُ اعْدِلْ فَإِنَّك لَمْ تَعْدِلْ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَدْ خِبْت وَخَسِرْت إنْ لَمْ أَعْدِلْ فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ فَقَالَ: إنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا أَقْوَامٌ يُحَقِّرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ} الْحَدِيثَ (2) .

الشرح :

هكذا تتجارى البدعة بأهل الأهواء ، كما يتجارى الكلَب بصاحبه ، نفسه فاعت بهذا الأمر ، وأُري في نفسه أنه يريد العدل ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ، الذي هو أمين الله على وحيه ، لم يأتمنه على بعير وشاة ودينار ، هكذا والعياذ بالله ، غشي بصرَه هذا البلاء وهذا الداء ، فوقع في هذه الفتنة العظيمة ، نسأل الله العافية .

---

(1) تقدم تخريجه في أحاديث الصحيحين .

(2) تقدم تخريجه في أحاديث الصحيحين .

فَكَانَ مَبْدَأُ الْبِدَعِ هُوَ الطَّعْنَ فِي السُّنَّةِ بِالظَّنِّ وَالْهَوَى؛ كَمَا طَعَنَ إِبْلِيسُ فِي أَمْرِ رَبِّهِ بِرَأْيِهِ وَهَوَاهُ. وَأَمَّا تَعْيِينُ الْفِرَقِ الْهَالِكَةِ فَأَقْدَمُ مَنْ بَلَغَنَا أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي تَضْلِيلِهِمْ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ ثُمَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَهُمَا – إِمَامَانِ جَلِيلَانِ مِنْ أَجِلَّاءِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ قَالَا: أُصُولُ الْبِدَعِ أَرْبَعَةٌ: الرَّوَافِضُ وَالْخَوَارِجُ وَالْقَدَرِيَّةُ وَالْمُرْجِئَةُ. فَقِيلَ لِابْنِ الْمُبَارَكِ: وَالْجَهْمِيَّة؟ فَأَجَابَ: بِأَنَّ أُولَئِكَ لَيْسُوا مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ. وَكَانَ يَقُولُ: إنَّا لَنَحْكِي كَلَامَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَحْكِيَ كَلَامَ الْجَهْمِيَّة . وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ اتَّبَعَهُ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِمْ قَالُوا: إنَّ الْجَهْمِيَّة كُفَّارٌ فَلَا يَدْخُلُونَ فِي الِاثْنَتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً كَمَا لَا يَدْخُلُ فِيهِمْ – الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ يُبْطِنُونَ الْكُفْرَ وَيُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ وَهُمْ الزَّنَادِقَةُ .

الشرح :

إذن : هذا مذهب يوسف بن أسباط ، وعبد الله بن المبارك رحمهما الله ، ومن وافقهما ، أن أصول البدع ، وأصول الافتراق ، ترجع إلى أربع :

1- الروافض .

2- الخوارج .

3- القدرية .

4- والمرجئة .

فقيل لابن المبارك : والجهمية لأنهم أشد ؟ قال : هؤلاء غير داخلين في القسمة أصلا ، الجهمية غير داخلين في القسمة ؛ لأنهم ليسوا من أمة محمد ، الثنتان والسبعون فرقة ، من الأمة ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم [وتفترق أمتي] ، يرى أنهم من أهل القبلة ، ومن أمة الإجابة ، لكن الجهمية لشناعة مقالتهم ، وغِلَظِها ، كما سيأتي ، غير داخلين في القسمة ، فلذلك أخرجهم ، ووافقه على ذلك طائفة من العلماء ، كأصحاب أحمد وغيرهم ، وسيذكر قولا آخر في هذا .

وَقَالَ آخَرُونَ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِمْ: بَلْ الْجَهْمِيَّة دَاخِلُونَ فِي الِاثْنَتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً وَجَعَلُوا أُصُولَ الْبِدَعِ خَمْسَةً فَعَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ: يَكُونُ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنْ " الْمُبْتَدِعَةِ الْخَمْسَةِ " اثْنَا عَشَرَ فِرْقَةً وَعَلَى قَوْلِ الْأَوَّلِينَ: يَكُونُ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنْ " الْمُبْتَدِعَةِ الْأَرْبَعَةِ " ثَمَانِيَةَ عَشَرَ فِرْقَةً .

وَهَذَا يُبْنَى عَلَى أَصْلٍ آخَرَ وَهُوَ " تَكْفِيرُ أَهْلِ الْبِدَعِ " فَمَنْ أَخْرَجَ الْجَهْمِيَّة مِنْهُمْ لَمْ يُكَفِّرْهُمْ فَإِنَّهُ لَا يُكَفِّرُ سَائِرَ أَهْلِ الْبِدَعِ بَلْ يَجْعَلُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْوَعِيدِ بِمَنْزِلَةِ الْفُسَّاقِ وَالْعُصَاةِ، وَيُجْعَلُ قَوْلُهُ هُمْ فِي النَّارِ مِثْلُ مَا جَاءَ فِي سَائِرِ الذُّنُوبِ مِثْلَ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَغَيْرِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا} .

وَمَنْ أَدْخَلَهُمْ فِيهِمْ فَهُمْ عَلَى قَوْلَيْنِ:

مِنْهُمْ مَنْ يُكَفِّرُهُمْ كُلَّهُمْ وَهَذَا إنَّمَا قَالَهُ بَعْضُ الْمُسْتَأْخِرِينَ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْأَئِمَّةِ أَوْ الْمُتَكَلِّمِينَ.

الشرح :

إذن تبين لنا أن في الجهمية قولين :

- منهم من أخرجهم من الثنتين والسبعين فرقة .
- ومنهم من أدخلهم فيها .

وبناء عليه ؛ فإن مَن أخرجهم من الثنتين والسبعين فرقة ، جعل الثنتين وسبعين فرقة ، ليسوا كفارا ، لم يحكم بكفرهم ، بل جعلهم من جنس أهل المعاصي ، المتوعدين بالنار ، فقول النبي صلى الله عليه وسلم ، [كلها في النار إلا واحدة] لا يقتضي كفرهم ، فإن الله تعالى قال {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا} مع أنهم من جملة المسلمين ، فهم من أهل الوعيد وحسب ، أما من أدخل الجهمية، في الثنتين والسبعين فرقة ، فقد انقسموا إلى قسمين :

- قسم رأى أن من لازم ذلك ، أن كل الثنتين والسبعين فرقة كفار .

وهذا قول يرده شيخ الإسلام ، ويرده أهل العلم ، ولهذا قال ههنا : قال بعض المستأخرين المنتسبين إلى الأئمة والمتكلمين ، فلم يرتض هذا القول رحمه الله .

ثم إنه تكلم رحمه الله ، عن بعض الفرق بخصوصها فقال :

وَأَمَّا السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ فَلَمْ يَتَنَازَعُوا فِي عَدَمِ تَكْفِيرِ " الْمُرْجِئَةِ " وَ " الشِّيعَةِ " الْمُفَضِّلَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَلَمْ تَخْتَلِفْ نُصُوصُ أَحْمَدَ فِي أَنَّهُ لَا يُكَفَّرُ هَؤُلَاءِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ مَنْ حَكَى فِي تَكْفِيرِ جَمِيعِ أَهْلِ الْبِدَعِ – مِنْ هَؤُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ – خِلَافًا عَنْهُ أَوْ فِي مَذْهَبِهِ حَتَّى أَطْلَقَ بَعْضُهُمْ تَخْلِيدَ هَؤُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ وَهَذَا غَلَطٌ عَلَى مَذْهَبِهِ وَعَلَى الشَّرِيعَةِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُكَفِّرْ أَحَدًا مِنْ هَؤُلَاءِ إلْحَاقًا لِأَهْلِ الْبِدَعِ بِأَهْلِ الْمَعَاصِي قَالُوا: فَكَمَا أَنَّ مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّهُمْ لَا يُكَفِّرُونَ أَحَدًا بِذَنْبِ فَكَذَلِكَ لَا يُكَفِّرُونَ أَحَدًا بِبِدْعَةِ.

الشرح :

إذن أفادنا رحمه الله ، أن السلف والأئمة لم يتنازعوا في عدم تكفير المرجئة والشيعة ، من المرجئة ؟ مراده بالمرجئة ههنا : هم الذين أخرجوا العمل عن مسمى الإيمان ، قالوا : الإيمان لا يتعلق به العمل ، العمل زائد عن الإيمان ، وكأنه يعني تحديدا مرجئة الفقهاء ، رحمهم الله ، مرجئة الفقهاء أصحاب أبي حنيفة ، يرون بأن العمل غير داخل في مسمى الإيمان ، لكنه من لازمه ، ومن ثمراته ، وأن الإيمان عندهم قول باللسان ، واعتقاد بالجنان ، ولم يكفرهم أحد أبدا من أهل السنة ، قطعا .

كذلك الشيعة المفضِّلة ؛ لأن الشيعة ثلاثة أصناف :

- شيعة مفضلة .
- وشيعة سابة .
- وشيعة مكفرة .

فالشيعة المفضلة ، هم الزيدية ، الذين يفضلون عليا على أبي بكر وعمر وعثمان ، ولكنهم يعتقدون صحة خلافة هؤلاء الثلاثة ، فهؤلاء المرجئة ، والشيعة المفضلة ، لم يقع في تكفيرهم خلاف ، بل أهل السنة يرون أنهم ليسوا كفارا .

وَالْمَأْثُورُ عَنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ إطْلَاقُ أَقْوَالٍ بِتَكْفِيرِ " الْجَهْمِيَّة الْمَحْضَةِ " الَّذِينَ يُنْكِرُونَ الصِّفَاتِ وَحَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يُرَى؛ وَلَا يُبَاينُ الْخَلْقَ؛ وَلَا لَهُ عِلْمٌ وَلَا قُدْرَةٌ وَلَا سَمْعٌ وَلَا بَصَرٌ وَلَا حَيَاةٌ بَلْ الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ وَأَهْلُ الْجَنَّةِ لَا يَرَوْنَهُ كَمَا لَا يَرَاهُ أَهْلُ النَّارِ وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ.

الشرح :

إذن هذا المثال الثاني ، وهو الذي لم يتنازع أهل السن ، في تكفيرهم ، وهم : الجهمية ، فإن الجهمية قد أجمع أهل السنة ، على تكفيرهم ، حتى أنشد ابن القيم في النونية :

ولقد تقلد كفرهم خمسون في ... عشر من العلماء في البلدان

أي كفرهم خمسمائة عالم من علماء أهل السنة والجماعة .

وَأَمَّا الْخَوَارِجُ وَالرَّوَافِضُ فَفِي تَكْفِيرِهِمْ نِزَاعٌ وَتَرَدُّدٌ عَنْ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ.

وَأَمَّا الْقَدَرِيَّةُ الَّذِينَ يَنْفُونَ الْكِتَابَةَ وَالْعِلْمَ فَكَفَّرُوهُمْ وَلَمْ يُكَفِّرُوا مَنْ أَثْبَتَ الْعِلْمَ وَلَمْ يُثْبِتْ خَلْقَ الْأَفْعَالِ.

وَفَصْلُ الْخِطَابِ فِي هَذَا الْبَابِ بِذِكْرِ أَصْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الْكَافِرَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ لَا يَكُونُ إلَّا مُنَافِقًا ، فَإِنَّ اللَّهَ مُنْذُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ وَهَاجَرَ إلَى الْمَدِينَةِ صَارَ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ: مُؤْمِنٌ بِهِ وَكَافِرٌ بِهِ مُظْهِرٌ الْكُفْرَ وَمُنَافِقٌ مُسْتَخْفٍ بِالْكُفْرِ. وَلِهَذَا ذَكَرَ اللَّهُ هَذِهِ الْأَصْنَافَ الثَّلَاثَةَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ذَكَرَ أَرْبَعَ آيَاتٍ فِي نَعْتِ الْمُؤْمِنِينَ؛ وَآيَتَيْنِ فِي الْكُفَّارِ؛ وَبِضْعَ عَشَرَ آيَةً فِي الْمُنَافِقِينَ.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ الأحزاب:1 وَقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ النساء: ١٤٠ وَقَوْلِهِ: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الحديد: ١٥ وَعَطَفَهُمْ عَلَى الْكُفَّارِ لِيُمَيِّزَهُمْ عَنْهُمْ بِإِظْهَارِ الْإِسْلَامِ وَإِلَّا فَهُمْ فِي الْبَاطِنِ شَرٌّ مِنْ الْكُفَّارِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ النساء: ١٤٥ و كَمَا قَالَ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ التوبة: ٨٤ وَ كَمَا قَالَ: ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ التوبة: ٥٣ – ٥٤.

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَأَهْلُ الْبِدَعِ فِيهِمْ الْمُنَافِقُ الزِّنْدِيقُ فَهَذَا كَافِرٌ ، وَيَكْثُرُ مِثْلُ هَذَا فِي الرَّافِضَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ ، فَإِنَّ رُؤَسَاءَهُمْ كَانُوا مُنَافِقِينَ زَنَادِقَةً.

وَأَوَّلُ مَنْ ابْتَدَعَ الرَّفْضَ كَانَ مُنَافِقًا ، وَكَذَلِكَ التَّجَهُّمُ فَإِنَّ أَصْلَهُ زَنْدَقَةٌ وَنِفَاقٌ. وَلِهَذَا كَانَ الزَّنَادِقَةُ الْمُنَافِقُونَ مِنْ الْقَرَامِطَةِ الْبَاطِنِيَّةِ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَأَمْثَالِهِمْ يَمِيلُونَ إلَى الرَّافِضَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ لِقُرْبِهِمْ مِنْهُمْ. وَمِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ مَنْ يَكُونُ فِيهِ إيمَانٌ بَاطِنًا وَظَاهِرًا لَكِنْ فِيهِ جَهْلٌ وَظُلْمٌ حَتَّى أَخْطَأَ مَا أَخْطَأَ مِنْ

السُّنَّةِ؛ فَهَذَا لَيْسَ بِكَافِرٍ وَلَا مُنَافِقٍ ثُمَّ قَدْ يَكُونُ مِنْهُ عُدْوَانٌ وَظُلْمٌ يَكُونُ بِهِ فَاسِقًا أَوْ عَاصِيًا؛ وَقَدْ يَكُونُ مُخْطِئًا مُتَأَوِّلًا مَغْفُورًا لَهُ خَطَؤُهُ؛ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ ذَلِكَ مَعَهُ مِنْ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى مَا يَكُونُ مَعَهُ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِقَدْرِ إيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ فَهَذَا أَحَدُ الْأَصْلَيْنِ .

الشرح :

لما أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، ذكر هذه النماذج الثلاثة في مسألة الثنتين وسبعين فرقة ، فذكر صنفا لم يتنازع أهل السنة في عدم تكفيرهم ، وهم : المرجئة ، والشيعة المفضلة .

وذكر صنفا لم يتنازع أهل السنة والجماعة في تكفيرهم ، وهم : الجهمية المحضة ، المعطلة .

وذكر صنفا وقع فيهم تردد ، عند أحمد وغيره ، ذكر منهم الخوارج والروافض ، قال : وأما الخوارج والروافض ، ففي تكفيرهم نزاع ، وتردد ، عن أحمد وغيره .

وذكر بعد ذلك القدرية ، الذين ينفون الكتابة ، وهو : العلم ، فكفروهم ، ولم يفكروا من أثبت العلم ، أي : أن القدرية الغلاة ، أوائلهم الذين ينكرون علم الله بالأشياء قبل حصولها ، وكتابته إياها ، هؤلاء كفرهم ككفر الجهمية ثابت .

وأما الذين أثبتوا العلم والكتابة ، وأنكروا المشيئة والخلق ، وهم المعتزلة ، فإنهم قد وقع الخلاف في تكفيرهم .

لما ذكر ذلك رحمه الله ، أراد أن يذكر أصلين عظيمين في باب التكفير :

أحد هذين الأصلين : أنه لا يمكن أن يكون أحد كافرا ، وهو من أهل الصلاة ، أي من المتظاهرين بالصلاة من أهل القبلة ، إلا أن يكون منافقا ، بمعنى : أن يكون ظاهره أنه من أهل القبلة ، ويدعي الإسلام ، ويستقبل قبلتنا ، ويأكل ذبيحتنا ، لكن هو في نفس الأمر كافر ، فلا يكون إلا منافقا ؛ وبناء على هذا الأصل بين الشيخ رحمه الله ، بأن من أهل البدع من يكون فيهم المنافق الزنديق ، ومنهم من يكون عنده جهل وظلم ، لكنه لا يكون كافرا ، وهذا هو عين العدل والإنصاف ، فقد يكون في هذه الفرق الضالة ، من هو منافق زنديق ، يتستر بالإيمان ، وباطنه الكفر ، قال "ويكثر ذلك في الرافضة والجهمية" وبين بأن بين الرافضة والجهمية ، ميل وتقارب .

ويوجد في أهل البدع من لا يبلغ ذلك المبلغ ، بل يكون عنده إيمان باطن وظاهر ، لكن عنده جهل وظلم ، فبحسب جهله وظلمه ، تكون بدعته ، هذا هو الأصل الأول .

ثم ذكر الأصل الثاني :

وَالْأَصْلُ الثَّانِي: أَنَّ الْمَقَالَةَ تَكُونُ كُفْرًا: كَجَحْدِ وُجُوبِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ ، وَتَحْلِيلِ الزِّنَا وَالْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَنِكَاحِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ ، ثُمَّ الْقَائِلُ بِهَا قَدْ يَكُونُ بِحَيْثُ لَمْ يَبْلُغْهُ الْخِطَابُ وَكَذَا لَا يُكَفَّرُ بِهِ جَاحِدُهُ كَمَنْ هُوَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِالْإِسْلَامِ ، أَوْ نَشَأَ بِبَادِيَةٍ بَعِيدَةٍ لَمْ تَبْلُغْهُ شَرَائِعُ الْإِسْلَامِ ، فَهَذَا لَا يُحْكَمُ بِكُفْرِهِ بِجَحْدِ شَيْءٍ مِمَّا أَنْزَلَ عَلَى الرَّسُولِ إِذَا لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ أُنْزِلَ عَلَى الرَّسُولِ ، وَمَقَالَاتُ الْجَهْمِيَّةِ هِيَ مِنْ هَذَا النَّوْعِ فَإِنَّهَا جَحْدٌ لِمَا هُوَ الرَّبُّ تَعَالَى عَلَيْهِ وَلِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ.

وَتُغَلَّطُ مَقَالَاتُهُمْ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ النُّصُوصَ الْمُخَالِفَةَ لِقَوْلِهِمْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ كَثِيرَةٌ جِدًّا مَشْهُورَةٌ وَإِنَّمَا يَرُدُّونَهَا بِالتَّحْرِيفِ.

الثَّانِي: أَنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ تَعْطِيلُ الصَّانِعِ وَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يَعْلَمُ أَنَّ قَوْلَهُمْ مُسْتَلْزِمٌ تَعْطِيلَ الصَّانِعِ، فَكَمَا أَنَّ أَصْلَ الْإِيمَانِ الْإِقْرَارُ بِاللَّهِ فَأَصْلُ الْكُفْرِ الْإِنْكَارُ لِلَّهِ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ يُخَالِفُونَ مَا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الْمِلَلُ كُلُّهَا وَأَهْلُ الْفِطَرِ السَّلِيمَةِ كُلِّهَا؛ لَكِنْ مَعَ هَذَا قَدْ يَخْفَى كَثِيرٌ مِنْ مَقَالَاتِهِمْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّ الْحَقَّ مَعَهُمْ ، لِمَا يُورِدُونَهُ مِنْ الشُّبُهَاتِ . وَيَكُونُ أُولَئِكَ الْمُؤْمِنُونَ مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا؛ وَإِنَّمَا الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ وَاشْتَبَهَ هَذَا كَمَا الْتَبَسَ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنْ أَصْنَافِ الْمُبْتَدِعَةِ ، فَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا كُفَّارًا قَطْعًا ، بَلْ قَدْ يَكُونُ مِنْهُمْ الْفَاسِقُ وَالْعَاصِي؛ وَقَدْ يَكُونُ مِنْهُمْ الْمُخْطِئُ الْمَغْفُورُ لَهُ؛ وَقَدْ يَكُونُ مَعَهُ مِنْ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى مَا يَكُونُ مَعَهُ بِهِ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِقَدْرِ إِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ.

الشرح :

إذن الأصل الثاني أصل عظيم مهم ، في إيقاع وإجراء الحكم ، وهو : التفريق بين القائل والمقالة ، والفاعل والفعل.

فلا يلزم من كون المقالة كفرا ، أن يكون قائلها كافرا ، ولا يلزم من كون الفعل كفرا ، أن يكون فاعله كافرا ، فإنه قد يقول مقالة الكفر عن جهل ، وقد يفعل فعل الكفر عن جهل .

وبناء عليه : فلا يُقرر ولا يوصف بعينه بالكفر ، إلا إذا توفرت الشروط ، وانتفت الموانع ، ما الشروط ؟ :

- العلم المنافي للجهل .
- الذكر المنافي للنسيان .
- الاختيار المنافي للإكراه .

فإذا توفرت هذه الشروط ، وانتفت أضدادها ، تحقق عليه الكفر ، أما أن يحكم بكفره ، بمجرد صدور قول معين، فلا بد أن يُنظر فيه ، هل له فيه شبهة سائغة أم لا ؟ .

ولهذا الجهمية لم تقبل معذرتهم ، لأن مقالتهم غليظة ، سوف يبين الشيخ أوجه غِلَظها .

وبمناسبة هذا الأمر ، فإنا نقول : من تعدى على جناب الرب سبحانه وتعالى ، أو نال من شخص نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا يُعتذر له ، ولا يقال له : مقالته كفر ، وهو ليس بكافر ؛ لأن هذا ليس فيه شبهة سائغة ، إذا كانت الشبهة سائغة ، اُلتُمس العذر ، أما إذا كان الأمر لا يسع فيه الجهل ، ولا مجال فيه لوجود مانع من الموانع: من جهل مناف للعلم ، أو إكراه مناف للاختيار ، أو نسيان مناف للذكر ، فإنه يُحقق عليه هذا الوصف .

وهذا هو ما جرى وثبت في هذا المتطاول الأفاك الأثيم ، الذي تطاول على مقام الربوبية ، ونال من مقام النبوة ، فإنه لا يُلتمس له العذر ، ولا يجوز لأحد من أهل العواطف أن يعبر له ، وأن يبحث له عن مخارج طوارئ ، فإن قوله قول لا يحتمل العذر ، بوجه من الوجوه .

إذن بين الشيخ رحمه الله أوجه تكفير الجهمية ، وذلك بسبب غِلظ مقالتهم ، وبدعتهم ، فلذلك لم يحتمل السلف لهم تأويلا ؛ لأن شبهتهم غير سائغة .

طبعا تعرفون ، الجهمية – والعياذ بالله – لا يثبتون لله اسما ولا صفة ، يثبتون الله وجودا مطلقا بشرط الإطلاق ، فلهذا قال الشيخ : إنها غليظة ، لمعارضتها للنصوص الكثيرة ، في الكتاب والسنة ، فكأنهم محوا ثلث القرآن ، الذي يتضمن إثبات صفات الرب ، وأسمائه الحسنى .

كذلك لأن مقالتهم ، تقتضي تعطيل الصانع ، بمعنى : أنه سبحانه وبحمده، ليس له صفات كمال ، ونعوت جلال ، وليس فعالا لما يريد ، إلى غير ذلك ، فهذا عين التعطيل .

الأمر الثالث : مخالفة جميع ما عليه بنو آدم ، من أهل الملل ، وأصحاب الفطر السليمة ، فلذلك لم يُلتفت إلى قولهم .

وتستطيعون الآن أن تقيسوا ، إذا كان هذا يقال في حق الجهمية ، فكيف بمن نال من ذات الله عز وجل ، ونال من مقام محمد ، صلى الله عليه وسلم ، أي غِلظ يبلغه ؟ .

وَأَصْلُ قَوْلِ أَهْلِ السُّنَّةِ الَّذِي فَارَقُوا بِهِ الْخَوَارِجَ وَالْجَهْمِيَّة وَالْمُعْتَزِلَةَ وَالْمُرْجِئَةَ أَنَّ الْإِيمَانَ يَتَفَاضَلُ وَيَتَبَعَّضُ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إيمَانٍ}[1] وَحِينَئِذٍ فَتَتَفَاضَلُ وِلَايَةُ اللَّهِ وَتَتَبَعَّضُ بِحَسَبِ ذَلِكَ.

وَإِذَا عُرِفَ أَصْلُ الْبِدَعِ فَأَصْلُ قَوْلِ الْخَوَارِجِ أَنَّهُمْ يُكَفِّرُونَ بِالذَّنْبِ، وَيَعْتَقِدُونَ ذَنْبًا مَا لَيْسَ بِذَنْبِ، وَيَرَوْنَ اتِّبَاعَ الْكِتَابِ دُونَ السُّنَّةِ الَّتِي تُخَالِفُ ظَاهِرَ الْكِتَابِ – وَإِنْ كَانَتْ مُتَوَاتِرَةً – وَيُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ وَيَسْتَحِلُّونَ مِنْهُ لِارْتِدَادِهِ عِنْدَهُمْ مَا لَا يَسْتَحِلُّونَهُ مِنْ الْكَافِرِ الْأَصْلِيِّ ،كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ {يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ}[2]وَلِهَذَا كَفَّرُوا عُثْمَانَ وَعَلِيًّا وَشِيعَتَهُمَا؛ وَكَفَّرُوا أَهْلَ صفين – الطَّائِفَتَيْنِ – فِي نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْمَقَالَاتِ الْخَبِيثَةِ .

الشرح :

أهل السنة بحمد الله ، فارقوا هذه البدع الضالة ، المجمع على ضلالتها ، بأصول بينة ، فأهل السنة والجماعة ، عندهم أن الإيمان يزيد وينقص ، وأنه يتفاضل ، كما قال ربنا عز وجل {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات} فجعلهم أطباقا ، وفاوت بينهم ، بينما أهل البدع ، يقول قائلهم : الإيمان شيء واحد ، إما أن يوجد كله ، أو يُعدم كله .

– فأما المرجئة ، فيتساهلون ، ويمنحون الإيمان بمجرد وجوده في القلب .

– وأما الخوارج ، فإنهم يشددون – والعياذ بالله – ويحبطون الإيمان بمجرد ارتكاب كبيرة ، فأهل السنة والجماعة وسط بحمد الله ، بين هؤلاء وهؤلاء .

---

(1) (متفق عليه) (البخاري 44 ، 6573 ، 7410) (مسلم 191 ، 193) و أخرجه (أحمد 12153) .

(2) (متفق عليه) (البخاري 44 ، 6573 ، 7410) (مسلم 191 ، 193) و أخرجه (أحمد 12153) .

وَأَصْلُ قَوْلِ الرَّافِضَةِ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصَّ عَلَى عَلِيٍّ نَصًّا قَاطِعًا لِلْعُذْرِ؛ وَأَنَّهُ إمَامٌ مَعْصُومٌ وَمَنْ خَالَفَهُ كَفَرَ؛ وَأَنَّ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ كَتَمُوا النَّصَّ وَكَفَرُوا بِالْإِمَامِ الْمَعْصُومِ؛ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَبَدَّلُوا الدِّينَ وَغَيَّرُوا الشَّرِيعَةَ وَظَلَمُوا وَاعْتَدَوْا؛ بَلْ كَفَرُوا إلَّا نَفَرًا قَلِيلًا: بِضْعَةَ عَشَرَ أَوْ أَكْثَرَ ثُمَّ يَقُولُونَ: إنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَنَحْوَهُمَا مَا زَالَا مُنَافِقَيْنِ. وَقَدْ يَقُولُونَ: بَلْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا. وَأَكْثَرُهُمْ يُكَفِّرُ مَنْ خَالَفَ قَوْلَهُمْ وَيُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ خَالَفَهُمْ كُفَّارًا وَيَجْعَلُونَ مَدَائِنَ الْإِسْلَامِ الَّتِي لَا تَظْهَرُ فِيهَا أَقْوَالُهُمْ دَارَ رِدَّةٍ أَسْوَأَ حَالًا مِنْ مَدَائِنِ الْمُشْرِكِينَ وَالنَّصَارَى وَلِهَذَا يُوَالُونَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ عَلَى بَعْضِ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ. وَعَلَى مُعَادَاتِهِمْ وَمُحَارَبَتِهِمْ: كَمَا عُرِفَ مِنْ مُوَالَاتِهِمْ الْكُفَّارَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَمِنْ مُوَالَاتِهِمْ الْإِفْرِنْجَ النَّصَارَى عَلَى جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَمِنْ مُوَالَاتِهِمْ الْيَهُودَ عَلَى جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ .

الشرح :

الله أكبر ، ما أشبه الليلة بالبارحة ، هؤلاء الروافض على مر التاريخ ، هم ربيئة أعداء الإسلام ، هم الذين يفتحون الثغور لليهود والنصارى والمشركين ، ليلجوا إلى أهل الإسلام ، ويفسدوا عليهم أمرهم ، فما نراه ونسمعه هذه الأيام ، من الموالاة الظاهرة والباطنية ، بين الروافض ، وبين اليهود والنصارى ، ضد أهل السنة ، إنما هو امتداد لفعل أسلافهم ، الذين كادوا لأهل السنة ، عبر التاريخ ، هم الذين فتحوا بغداد لهولاكو ، وتركوه يقتل الخليفة المستنصر ، وقضاة أهل السنة ، وأعيان البلد ، حتى قتل في بغداد ، نحو ألف ألف إنسان ، إن تعجبوا أن يُقتل في سوريا الآن ، نحو عشرة آلاف أو يزيد ، فاعلموا أنهم قد قتلوا في بغداد ، نحو ألف ألف إنسان ، أي: ما يقارب مليونا ، بل مليون إنسان ، وهكذا ، كانوا يفتحون الثغور للصليبيين ، ويسلمونها لهم ، ليطؤوا أرض الإسلام ، ويحتلوا بيت المقدس ، فهؤلاء الروافض ، يمقتون أهل السنة ، ويحقدون عليهم ، ويرون في شخص أبي بكر وعمر ، وعثمان ، وسائر الصحابة ، أنهم كفار مرتدون ، سلبوا عليا رضي الله عنه ، حقه في الخلافة ، وانتزعوها منها ، فقلوبهم تجيش بالحقد على أهل الإسلام ، نسأل الله أن يجعل كيدهم في نحورهم .

وَمِنْهُمْ ظَهَرَتْ أُمَّهَاتُ الزَّنْدَقَةِ وَالنِّفَاقِ كَزَنْدَقَةِ الْقَرَامِطَةِ الْبَاطِنِيَّةِ وَأَمْثَالِهِمْ وَلَا رَيْبَ أَنَّهُمْ أَبْعَدُ طَوَائِفِ الْمُبْتَدِعَةِ عَنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلِهَذَا كَانُوا هُمْ الْمَشْهُورِينَ عِنْدَ الْعَامَّةِ بِالْمُخَالَفَةِ لِلسُّنَّةِ فَجُمْهُورُ الْعَامَّةِ لَا تَعْرِفُ ضِدَّ السُّنِّيِّ إلَّا الرَّافِضِيَّ فَإِذَا قَالَ أَحَدُهُمْ: أَنَا سُنِّيٌّ فَإِنَّمَا مَعْنَاهُ لَسْت رافضيا. وَلَا رَيْبَ أَنَّهُمْ شَرٌّ مِنْ الْخَوَارِجِ: لَكِنَّ الْخَوَارِجَ كَانَ لَهُمْ فِي مَبْدَأِ الْإِسْلَامِ سَيْفٌ عَلَى أَهْلِ الْجَمَاعَةِ وَمُوَالَاتُهُمْ الْكُفَّارَ أَعْظَمُ مِنْ سُيُوفِ الْخَوَارِجِ فَإِنَّ الْقَرَامِطَةَ والإسْماعِيلِيَّةَ وَنَحْوَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمُحَارَبَةِ لِأَهْلِ الْجَمَاعَةِ وَهُمْ مُنْتَسِبُونَ إلَيْهِمْ وَأَمَّا الْخَوَارِجُ فَهُمْ مَعْرُوفُونَ بِالصِّدْقِ؛ وَالرَّوَافِضُ مَعْرُوفُونَ بِالْكَذِبِ. وَالْخَوَارِجُ مَرَقُوا مِنْ الْإِسْلَامِ وَهَؤُلَاءِ نَابَذُوا الْإِسْلَامَ .

الشرح :

الله أكبر ، هذه الجملة قوله "وهم شر من الخوارج " بل قال "ولا ريب أنهم شر من الخوارج" وعقد مقارنة بين الروافض والخوارج ، وبين أنهم أشد شرا ، وإنما جرى الكلام عن الخوارج في مبدأ الإسلام ؛ لأن شرهم ظهر أولا ، وإلا فإن موالاة هؤلاء الإسماعيلية ، الذين يلقبون أنفسهم بالفاطميين ، وهم عبيديون قرامطة ، معاداتهم لأهل الإسلام ظاهرة ، حتى إن أبا سعيد الجُنّابي ، زعيم القرامطة في الأحساء والبحرين ، قصد بيت الله الحرام ، في موسم الحج ، وقتل الناس في المطاف ، وألقاهم في بئر زمزم ، ثم مال على أهل منى بسيفه ، وسرقوا الحجر الأسود ، وبقي عندهم مدة طويلة ، وتاريخهم حافل بهذه الجرائم البشعة ، لكن الناس لا يقرؤون ، يظنون أن ما يجري في هذه الأيام ، إنما هو حديث جديد ، لا صلة له ولا جذور له في التاريخ .

وَأَمَّا الْقَدَرِيَّةُ الْمَحْضَةُ فَهُمْ خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ بِكَثِيرٍ وَأَقْرَبُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَكِنَّ الْمُعْتَزِلَةَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ الْقَدَرِيَّةِ هُمْ جهمية أَيْضًا وَقَدْ يُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ وَيَسْتَحِلُّونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ فَيَقْرُبُونَ مِنْ أُولَئِكَ .

وَأَمَّا الْمُرْجِئَةُ فَلَيْسُوا مِنْ هَذِهِ الْبِدَعِ الْمُغَلَّظَةِ بَلْ قَدْ دَخَلَ فِي قَوْلِهِمْ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْفِقْهِ وَالْعِبَادَةِ؛ وَمَا كَانُوا يُعَدُّونَ إلَّا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ؛ حَتَّى تغلظ أَمْرُهُمْ بِمَا زَادُوهُ مِنْ الْأَقْوَالِ الْمُغَلَّظَةِ .

الشرح :

خاير الشيخ بين القدرية ، وبين الفرق الأخرى ، فقال : إن القدرية المحضة ، خير من أولئك ، أي من لخوارج والروافض ، وسر ذلك : أن القدرية يعظمون الأمر والنهي ، هم ما الذي حملهم على إنكار القدر ؟ تعظيم الأمر والنهي والشرع ، لكنهم هربوا من الوقوع في حفرة ،

فوقعوا في حفرة أخرى ، فبين أنهم خير من الروافض ، ومن الخوارج .

وَلَمَّا كَانَ قَدْ نُسِبَ إِلَى الْإِرْجَاءِ وَالتَّفْضِيلِ قَوْمٌ مَشَاهِيرُ مُتَّبَعُونَ: تَكَلَّمَ أَئِمَّةُ السُّنَّةِ الْمَشَاهِيرُ فِي ذَمِّ الْمُرْجِئَةِ الْمُفَضِّلَةِ تَنْفِيرًا عَنْ مَقَالَتِهِمْ كَقَوْلِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ: مَنْ قَدَّمَ عَلِيًّا عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَالشَّيْخَيْنِ فَقَدْ أَزْرَى بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؛ وَمَا أَرَى يَصْعَدُ لَهُ إِلَى اللَّهِ عَمَلٌ مَعَ ذَلِكَ. أَوْ نَحْوِ هَذَا الْقَوْلِ. قَالَهُ لَمَّا نُسِبَ إِلَى تَقْدِيمِ عَلَى بَعْضِ أَئِمَّةِ الْكُوفِيِّينَ. وَكَذَلِكَ قَوْلُ أَيُّوبَ السختياني: مَنْ قَدَّمَ عَلِيًّا عِلى عُثْمَانَ فَقَدْ أَزْرَى بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ قَالَهُ لَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ عَنْ بَعْضِ أَئِمَّةِ الْكُوفِيِّينَ. وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِمْ فِي ذَمِّ الْمُرْجِئَةِ لَمَّا نُسِبَ إِلَى الْإِرْجَاءِ بَعْضُ الْمَشْهُورِينَ .

وَكَلَامُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي هَذَا الْبَابِ جَارٍ عَلَى كَلَامِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أَئِمَّةِ الْهُدَى لَيْسَ لَهُ قَوْلٌ ابْتَدَعَهُ وَلَكِنْ أَظْهَرَ السُّنَّةَ وَبَيَّنَهَا؛ وَذَبَّ عَنْهَا وَبَيَّنَ حَالَ مُخَالِفِيهَا وَجَاهَدَ عَلَيْهَا؛ وَصَبَرَ عَلَى الْأَذَى فِيهَا لَمَّا أُظْهِرَتْ الْأَهْوَاءُ وَالْبِدَعُ؛ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ السجدة: 24 فَالصَّبْرُ وَالْيَقِينُ بِهِمَا تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ فَلَمَّا قَامَ بِذَلِكَ قُرِنَتْ بِاسْمِهِ مِنْ الْإِمَامَةِ فِي السُّنَّةِ مَا شُهِرَ بِهِ وَصَارَ مَتْبُوعًا لِمَنْ بَعْدَهُ كَمَا كَانَ تَابِعًا لِمَنْ قَبْلَهُ. وَإِلَّا فَالسُّنَّةُ هِيَ مَا تَلَقَّاهُ الصَّحَابَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَلَقَّاهُ عَنْهُمْ التَّابِعُونَ ثُمَّ تَابِعُوهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنْ كَانَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ بِهَا أَعْلَمَ وَعَلَيْهَا أَصْبَرَ. وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الشرح :

هذه مسك الختام ، هذه الجملة المحكمة ، بالصبر واليقين ، تنال الإمامة في الدين ، كما قال ربنا عز وجل {وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون} فمن رُزق هاتين الخصلتين : الصبر واليقين ، نال من الإمامة في الدين ، بقدر ما حقق منها .

والإمام أحمد رحمه الله ، حقيق بهذين الوصفين ، فإنه قد ناله في ذات الله من الأذى ، والسَّجن ، والضرب ، في الذب عن مذهب الحق ، ما هو معلوم مسطور في التاريخ ، وليس هو وحده ، لكنه اشتُهر بذلك ، بسبب تلك الحادثة ، فصارت النسبة إليه أشهر ، وإلا ففي علماء الأمة ، على مر القرون ، من حقق هذين الوصفين ، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعز دينه ، وأن يعلي كلمته ، وأن يبرم لهذه الأمة أمر رشد ، ويعز فيه أهل طاعته ، ويذل فيه أهل معصيته ، ويؤمر فيه بالمعروف ، وينهى فيه عن المنكر .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قَاعِدَةٌ:

الِانْحِرَافُ عَنْ الْوَسَطِ كَثِيرٌ فِي أَكْثَرِ الْأُمُورِ فِي أَغْلَبِ النَّاسِ. مِثْلَ تَقَابُلِهِمْ فِي بَعْضِ الْأَفْعَالِ يَتَّخِذُهَا بَعْضُهُمْ دِينًا وَاجِبًا أَوْ مُسْتَحَبًّا أَوْ مَأْمُورًا بِهِ فِي الْجُمْلَةِ. وَبَعْضُهُمْ يَعْتَقِدُهَا حَرَامًا مَكْرُوهًا أَوْ مُحَرَّمًا أَوْ مَنْهِيًّا عَنْهُ فِي الْجُمْلَةِ.

مِثَالُ ذَلِكَ " سَمَاعُ الْغِنَاءِ " فَإِنَّ طَائِفَةً مِنْ الْمُتَصَوِّفَةِ وَالْمُتَفَقِّرَةِ تَتَّخِذُهُ دِينًا وَإِنْ لَمْ تَقُلْ بِأَلْسِنَتِهَا أَوْ تَعْتَقِدْ بِقُلُوبِهَا أَنَّهُ قُرْبَةٌ – فَإِنَّ دِينَهُمْ حَالٌ؛ لَا اعْتِقَادٌ: فَحَالُهُمْ وَعَمَلُهُمْ هُوَ اسْتِحْسَانُهَا فِي قُلُوبِهِمْ وَمَحَبَّتُهُمْ لَهَا دِيَانَةً وَتَقَرُّبًا إلَى اللَّهِ. وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ قَدْ يَعْتَقِدُ ذَلِكَ وَقَوْلُهُ بِلِسَانِهِ.

وَفِيهِمْ مَنْ يَعْتَقِدُ وَيَقُولُ: لَيْسَ قُرْبَةً – لَكِنَّ حَالَهُمْ هُوَ كَوْنُهُ قُرْبَةً وَنَافِعًا فِي الدِّينِ وَمُصْلِحًا لِلْقُلُوبِ.

وَيَغْلُو فِيهِ مَنْ يَغْلُو؛ حَتَّى يَجْعَلَ التَّارِكِينَ لَهُ كُلَّهُمْ خَارِجِينَ عَنْ وِلَايَةِ اللَّهِ وَثَمَرَاتِهَا مِنْ الْمَنَازِلِ الْعَلِيَّةِ.

بِإِزَائِهِمْ مَنْ يُنْكِرُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْغِنَاءِ وَيُحَرِّمُهُ وَلَا يَفْصِلُ بَيْنَ غِنَاءِ الصَّغِيرِ وَالنِّسَاءِ فِي الْأَفْرَاحِ وَغِنَاءِ غَيْرِهِنَّ وَغِنَائِهِنَّ فِي غَيْرِ الْأَفْرَاحِ.

وَيَغْلُو مَنْ يَغْلُو فِي فَاعِلِيهِ حَتَّى يَجْعَلَهُمْ كُلَّهُمْ فُسَّاقًا أَوْ كُفَّارًا. وَهَذَانِ الطَّرَفَانِ مِنْ اتِّخَاذِ مَا لَيْسَ بِمَشْرُوعٍ دِينًا أَوْ تَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمُ دِينُ الْجَاهِلِيَّةِ وَالنَّصَارَى: الَّذِي عَابَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ ﴾ الأنعام: ١٤٨ وَقَالَ تَعَالَى فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ: {إنِّي خَلَقْت عِبَادِي حُنَفَاءَ فَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْت لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا}[1] وَقَالَ فِي حَقِّ النَّصَارَى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ ﴾التوبة:29

وَمِثَالُ ذَلِكَ: أَنْ يَحْصُلَ مِنْ بَعْضِهِمْ " تَقْصِيرٌ فِي الْمَأْمُورِ " أَوْ " اعْتِدَاءٌ فِي الْمَنْهِيِّ ": إمَّا مِنْ جِنْسِ الشُّبُهَاتِ وَإِمَّا مِنْ جِنْسِ الشَّهَوَاتِ: فَيُقَابِلُ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ بِالِاعْتِدَاءِ فِي الْأَمْرِ

1- (مسلم 2865) .

بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ أَوْ بِالتَّقْصِيرِ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ.

وَالتَّقْصِيرُ وَالِاعْتِدَاءُ: إمَّا فِي الْمَأْمُورِ بِهِ وَالْمَنْهِيِّ عَنْهُ شَرْعًا وَإِمَّا فِي نَفْسِ أَمْرِ النَّاسِ وَنَهْيِهِمْ: هُوَ الَّذِي اسْتَحَقَّ بِهِ أَهْلُ الْكِتَابِ الْعُقُوبَةَ حَيْثُ قَالَ: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ آل عمران: ١١٢ **فَجَعَلَ ذَلِكَ بِالْمَعْصِيَةِ وَالِاعْتِدَاءِ.**

وَالْمَعْصِيَةُ: مُخَالَفَةُ الْأَمْرِ وَهُوَ التَّقْصِيرُ وَالِاعْتِدَاءُ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ.

وَكَذَلِكَ يَضْمَنُ كُلُّ " مُؤْتَمَنٍ عَلَى مَالٍ " إذَا قَصَّرَ وَفَرَّطَ فِي مَا أُمِرَ بِهِ وَهُوَ الْمَعْصِيَةُ إذَا اعْتَدَى بِخِيَانَةِ أَوْ غَيْرِهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ المائدة: ٢ فَالْإِثْمُ هُوَ الْمَعْصِيَةُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {إنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا وَحَرَّمَ مَحَارِمَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا}[1]

فَالْمَعْصِيَةُ تَضْيِيعُ الْفَرَائِضِ وَانْتِهَاكُ الْمَحَارِمِ: وَهُوَ مُخَالَفَةُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالِاعْتِدَاءُ مُجَاوَزَةُ حُدُودِ الْمُبَاحَاتِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ﴾ الأعراف: ١٥٧

فَالْمَعْصِيَةُ مُخَالَفَةُ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَالِاعْتِدَاءُ مُجَاوَزَةُ مَا أَحَلَّهُ إلَى مَا حَرَّمَهُ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ – وَاَللَّهُ أَعْلَمُ –: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا ﴾ آل عمران: ١٤٧ **فَالذُّنُوبُ: الْمَعْصِيَةُ وَالْإِسْرَافُ: الِاعْتِدَاءُ وَمُجَاوَزَةُ الْحَدِّ .**

وَاعْلَمْ أَنَّ " مُجَاوَزَةَ الْحَدِّ " هِيَ نَوْعٌ مِنْ مُخَالَفَةِ النَّهْيِ لِأَنَّ اعْتِدَاءَ الْحَدِّ مُحَرَّمٌ مَنْهِيٌّ عَنْهُ فَيَدْخُلُ فِي قِسْمِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ؛ لَكِنَّ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ قِسْمَانِ:

مَنْهِيٌّ عَنْهُ مُطْلَقًا كَالْكُفْرِ فَهَذَا فِعْلُهُ إثْمٌ وَمَنْهِيٌّ عَنْهُ.

وَقِسْمٌ أُبِيحَ مِنْهُ أَنْوَاعٌ وَمَقَادِيرُ وَحَرَّمَ الزِّيَادَةَ عَلَى تِلْكَ الْأَنْوَاعِ وَالْمَقَادِيرِ فَهَذَا فِعْلُهُ عُدْوَانٌ.

وَكَذَلِكَ قَدْ يَحْصُلُ الْعُدْوَانُ فِي الْمَأْمُورِ بِهِ كَمَا يَحْصُلُ فِي الْمُبَاحِ فَإِنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى الْمَأْمُورِ بِهِ قَدْ يَكُونُ عُدْوَانًا مُحَرَّمًا وَقَدْ يَكُونُ مُبَاحًا مُطْلَقًا وَقَدْ يَكُونُ مُبَاحًا إلَى غَايَةٍ فَالزِّيَادَةُ عَلَيْهَا عُدْوَانٌ.

1- راجع كلام (ابن رجب) على اسناد هذا الحديث .

وَلِهَذَا التَّقْسِيمِ قِيلَ فِي " الشَّرِيعَةِ " هِيَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْحَلَالُ وَالْحَرَامُ وَالْفَرَائِضُ وَالْحُدُودُ وَالسُّنَنُ وَالْأَحْكَامُ. " فَالْفَرَائِضُ " هِيَ الْمَقَادِيرُ فِي الْمَأْمُورِ بِهِ. وَ " الْحُدُودُ " النِّهَايَاتُ لِمَا يَجُوزُ مِنْ الْمُبَاحِ الْمَأْمُورِ بِهِ وَغَيْرِ الْمَأْمُورِ بِهِ.